

(٣)

أدلة الميحين للغناء
ومدى اعتبارها

obeikandi.com

أدلة المبيحين للغناء ومدى اعتبارها

تمهيد

الأصل في الأشياء الإباحة:

قرر المحققون من علماء الإسلام: أن الأصل في الأشياء الإباحة لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]. وما كان الله تعالى ليخلق لهم الأشياء، ثم يحرمها عليهم، إنما يحرم عليهم الخبيث والمضار: حماية لهم، وتحقيقاً لمصلحتهم، كما وصف رسول بقوله: ﴿وَيَحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتُ وَيُحْرَمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثُ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ولا تحريم إلا بنص صحيح صريح من كتاب الله تعالى، أو سنة رسوله ﷺ أو إجماع ثابت متيقن، فإذا لم يرد نص ولا إجماع. أو ورد نص صريح غير صحيح، أو صحيح غير صريح، بتحريم شيء من الأشياء، لم يؤثر ذلك في حله، وبقي في دائرة العفو الواسعة، قال تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩].

وقال رسول الله ﷺ: «ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً»، وتلا: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]، (رواه الحاكم عن أبي الدرداء وصححه، وأخرجه البزار) (١).

وقال: «إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها، وحرم

(١) رواه الحاكم في مستدركه (٢/٣٧٥) وصححه ووافقه الذهبي، ورواه البزار، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: (١/١٧١) رواه البراز والطبراني في «الكبير» وإسناده حسن ورجاله موثقون.

أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها»^(١).

وإذا كانت هذه هي القاعدة، فإذا لم نجد في تحريم الغناء نصا صحيحا صريحا، أو إجماعا يقينيا، فقد بقى على أصل الإباحة، ولم نحتاج إلى دليل يدل عليها، وإذا كنا قد أبطلنا كل ما استدل به المانعون للغناء وآلاته من نصوص القرآن والسنة، ومن كلام الصحابة، فلم يعد مطلوبا منا أن نقيم دليلا على الإباحة، فإذا ذكرنا دليلا أو أكثر في هذا المجال، فإنما هو من باب التبرع منا، وإن لم يكن يلزمنا. إذ الدليل مطلوب من المحرم، وليس مطلوبا من المباح.

* * *

(١) أخرجه الدارقطني (٤/٢٨٣، ٨٤) والطبراني في الكبير (٥٨٩/٢٢) والخطيب في الفقيه والمتفقه (٩/٢) والبيهقي في السنن (١٢/١٠، ١٣) كما رواه موقوفا (١٢/١٠) وأبو نعيم في الحلية (٩/١٧) كلهم عن أبي ثعلبة الخشني، وحسنه الحافظ أبو بكر السمعي في أماليه، والنووي في الأربعين.

أدلة المبيحين للغناء

أجل، كان يكفي المبيحين للغناء: أن تسقط أدلة التحريم واحدا بعد آخر، ولا يبقى منها دليل واحد ينهض للدلالة على ما أراد المحرمون. وإذن يبقى الأمر على أصل الإباحة.

ومع هذا فعند المجوزين أو المبيحين أدلة شتى، تشد أزهرهم، وتقوى ظهرهم فيما يذهبون إليه.

١ - فعندهم أدلة من آيات القرآن العظيم.

٢ - وعندهم أدلة من صحاح أحاديث الرسول الكريم.

٣ - وعندهم أدلة من هدى الصحابة الكرام.

٤ - وعندهم أدلة من مقاصد الشريعة وروح الإسلام.

وستحدث عن هذه المحاور الأربعة فيما يأتي، وبالله التوفيق والسداد، ومنه العون والاستمداد.

١ - أدلتهم من القرآن

أما أدلة المبيحين للغناء من القرآن، فنجملها فيما يلي :

١ - آية ﴿ وَيَحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتُ ﴾ :

أول ما استدل به المحيزون من القرآن قوله تعالى فِي وَصْفِ النَّبِيِّ ﷺ فِي كِتَابِ أَهْلِ الْكِتَابِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَيَحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتُ وَيَحْرِمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثُ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

ووجه الدلالة من الآيات : أنها ذكرت إحلال الطيبات في مقام مدح الرسالة المحمدية، وأنها جاءت رسالة تخفيف وتيسير - و(الطيبات) : جمع محلي بالألف واللام، فيفيد العموم، ويشمل كل طيب . والطيب يطلق على (المستلذ) وهو الأكثر، المتبادر إلى الفهم عند التجرد عن القرائن، ويطلق أيضا على الطاهر والحلال، وصيغة العموم كلية تتناول كل فرد من أفراد العام، فتدخل أفراد المعاني الثلاثة كلها . .

ولو قصرنا العام على بعض أفرادها، لكان قصره على المتبادر إلى الفهم هو الظاهر .

قال الشوكاني : وقد صرح ابن عبد السلام في (دلائل الأحكام) : أن المراد بالطيبات في الآية «المستلذات»^(١) .

وقد صرح القرآن في أكثر من موضع بإباحة الطيبات للناس، فضلا من الله عليهم، ورحمة بهم، وتوسعة عليهم .

يقول تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ ﴾

[المائدة : ٤]

(١) انظر: نيل الأوطار ج ٨، ص ٣٢ . وإذن لا معنى لتشنيع بعض الباحثين على الشيخ شلتوت رحمه الله بأنه استدل بأن الغناء من (المستلذات) لأن معناه أنه من (الطيبات) !

ويقول تعالى منكرًا على الذين ضيقوا على عباد الله ما وسع الله عليهم
وحرموا ما أحل لهم: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ
الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وقال سبحانه ناهيًا ومحذرا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ
اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧].

٢ - آية ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا﴾:

ومما استدل به المحجوزون للغناء: قوله تعالى في سورة الجمعة: ﴿وَإِذَا رَأَوْا
تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكَوْكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِّ وَمِنَ التِّجَارَةِ
وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الجمعة: ١١].

وقد جاء في سبب نزول الآية - ما ورد في صحيح مسلم وغيره - أنهم
كانوا إذا وصلت قافلتهم المنتظرة محملة ببضائعهم وتجارتهم استقبلوها بالدفوف
والغناء، فرحا بسلامة وصولها من ناحية، وأملا فيما يرجى أن تجلبه عليهم من
مكاسب وأرباح.

ولقد بلغ شغفهم بها، وإقبالهم عليها، وانشغالهم بها إلى حد أن هرعوا
إليها، وتركوا الرسول الكريم يخطب الجمعة، حتى لم يبق معه إلا اثنا عشر رجلا
فيما تذكر الروايات.

روى مسلم في صحيحه في باب الجمعة عن جابر بن عبد الله: أنه صلى الله عليه -
كان يخطب قائما يوم الجمعة، فجاءت غير (قافلة محملة بالبضائع) من الشام،
فانفتل الناس إليها، حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلا فأنزل الله هذه الآية في
الجمعة: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُوا إِلَيْهَا..﴾ الآية.

ومع هذا أنكر القرآن عليهم برفق، مراعيًا طبيعة البشر، وحبهم للمال، كما

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨] وكان تركيز التنديد القرآني بانفضاضهم عن رسول الله، أكثر من انشغالهم باللهو والتجارة، كما هو واضح من ألفاظ الآيات: ﴿انْفِضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الجمعة: ١١].

ولو كان اللهو - وهو هنا الغناء والدف ونحوه - محرما، ما عطف على التجارة أو عطف عليه التجارة في سياق واحد، ومن المستيقن في دين الله أن التجارة مشروعة، بالنص والإجماع بل مندوب إليها بشروطها، فما عطف عليها أو عطف عليه يكون له حكمها. فإن المعطوف يأخذ حكم المعطوف عليه، فثبت - كما قال الحافظ ابن طاهر - أن هذه الحكم أقره الشرع على ما كان عليه في الجاهلية. لأنه غير محتمل أن يكون النبي حرمه، ثم يمر به على المسجد يوم الجمعة، ثم يعاتب الله من ترك رسول الله ﷺ، وخرج ينظر إليه ويستمع، ولم ينزل في تحريمه آية، ولا سن رسول الله ﷺ منه سنة، فعلمنا بقاءه على حاله^(١). أهـ

يوضح هذا: أن قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾ لا يدل على التحريم بحال، إنما يدل على المفاضلة بين الأجرين، وأفضلية الأول على الثاني، لا على تحريم الثاني، وإباحة الأول. فهذا أبعد ما يكون عن أسلوب التفضيل.

وهذه الآية ترد بجلاء على الذين زعموا أن القرآن حرم اللهو، وكما قيل لهم: لو حرم اللهو حرمت الدنيا كلها، لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُو﴾ [محمد: ٣٦]. فقالوا: إنما حرم لهوا خاصا، وهو لهو الحديث، يعنون الغناء. فهذه الآية قرنت اللهو الخاص هنا بالتجارة، فلم يبق ريب في إباحته.

ومما يؤكد هذا: حديث الجارية التي كانت عند عائشة وتزوجت من أنصاري، وقول الرسول الكريم: «هلا كان معهم لهو؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو» فهذا يدل بوضوح على أن اللهو في ذاته ليس محظورا شرعا.

(١) انظر: السماع لابن طاهر ص ٧٢، ٧٣ طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة،

بتحقيق أبي الوفا المراغي.

٣ - آية: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾:

ومما يستأنس به هنا: ما ذكره الإمام الغزالي في (الإحياء): إن قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩] يدل - بمفهومه - على مدح الصوت الحسن.

٤ - آية: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾:

مما ذكره الغزالي هنا من القرآن قوله عز وجل: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر: ١] وهو ما قاله بعض المفسرين: إنه الصوت الحسن، ولكن لا دليل على صحة هذا القول، ولسنا في حاجة إلى مكلف الأدلة، وقد أغنانا الله بالبينات الواضحات.

* * *

٢ - أدلة المجوزين للغناء من الأحاديث

يستند المبيحون للغناء وآلاته، إلى عدد من الأحاديث الصحاح، التي لا مطعن فيها لطاعن، تدل على مشروعية الغناء، نذكر أبرزها فيما يلي:

١ - حديث غناء الجاريتين في البيت النبوي:

أول حديث نذكره هنا هو حديث عائشة الصحيح المتفق عليه، عن غناء الجاريتين في بيت عائشة، ورسول الله ﷺ عندها.

فعن عائشة رضی الله عنها: أن أبا بكر دخل عليها، وعندها جاريتان تغنيان بدفين، وتغنيان في أيامهما، ورسول الله ﷺ مستتر بثوبه، فنهروهما أبو بكر، فكشف رسول الله ﷺ ثوبه، وقال: «دعهما يا أبا بكر، فإنها أيام عيد»، قالت عائشة: ولما قدم وفد الحبشة على رسول الله ﷺ قاموا يلعبون في المسجد، فرأيت رسول الله ﷺ يسترني بردائه، وأنا أنظر إليهم، وهم يلعبون في المسجد، حتى أكون أنا الذي أسأمه. فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن، الحريصة على اللهو».

وفي رواية عنها رضی الله عنها قالت: دخل عليّ أبو بكر، وعندي جاريتان من جوارى الأنصار تغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بعث، فقال أبو بكر: أمزمار الشيطان في بيت رسول الله ﷺ؟ وذلك في يوم عيد، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر، إن لكل قوم عيداً، وهذا عيدنا».

ووجه الدلالة في هذا الحديث بطرقه ورواياته: أن هناك غناء مصحوباً بضرب الدف قد وقع من الجاريتين، وفي بيت النبوة، وأن عائشة سمعته، وكذلك النبي ﷺ: وقد أنكر على أبي بكر انتهاره للجاريتين، قالوا: بل فيه دليل على جواز سماع الرجل صوت الجارية الأجنبية، لأنه عليه الصلاة والسلام سمع، ولم ينكر على أبي بكر سماعه، بل أنكر إنكاره، وقد استمرت تغنيان، إلى أن أشارت إليهما عائشة بالخروج.

وإنكار أبي بكر على ابنته، مع علمه بوجود رسول الله، إنما كان لظنه أن ذلك لم يكن بعلمه عليه الصلاة والسلام، لكونه دخل فوجده مغطى بثوبه، فظنه نائما.

وفى فتح البارى: استدل جماعة من الصوفية بهذا الحديث على إباحة الغناء وسماعه بألة وبغير آلة^(١).

وقد قال بعض المانعين: إن الجاريتين كانتا صغيرتين، ولا يوجد فى النص دليل على ذلك، بل إن غضب أبى بكر، وانتهاره لهما، وقوله: أمزور الشيطان فى بيت رسول الله؟ وتخريقه الدفين كما فى بعض الروايات، كل هذا يدل على أنهما لم تكونا صغيرتين، فلو صح ذلك لم تستحقا كل هذا الغضب والإنكار من أبى بكر إلى هذا الحد الذى ذكرته الروايات.

وتمسك بعض المانعين بما جاء فى إحدى الروايات فى وصف الجاريتين، بقوله: «وليستنا مغنيتين» وهذا فى الواقع لا يدل على أكثر من أنهما غير محترفتين، أى ليستا من القيان اللائى يتكسبن بالغناء، ولكنهما غنتا وضربتا بالدف؛ فقد وقع منهما الغناء والضرب بالدف، وليس كل مغن محترفا.

والمعول عليه هنا: هو رد النبى ﷺ على أبى بكر رضى الله عنه وتعليله أنه يريد أن يعلم يهود «أن فى ديننا فسحة وأنه بعث بحنيفية سمحة»^(٢) وهو يدل على وجوب رعاية تحسين صورة الإسلام فى أعين الآخرين، وإظهار جانب اليسر والسماحة فى هذا الدين، حتى تجذب الناس إليه، وتأخذ بأيديهم إلى رحابه الفسيحة، ونقودهم إلى الجنة بالتيسير لا بالتعسير، وبالتبشير لا بالتنفير.

وقد ذهب بعضهم إلى أن الحديث إنما أباح الغناء بمناسبة العيد، فبقى ماعدا العيد على المنع، ونرد على هؤلاء بأمرين:

(١) نقله الألوسى فى تفسيره (روح المعانى) وإن لم يرتضه. ج ٢١، ص: ٧٠.

(٢) رواه أحمد عن عائشة.

الأول: أن العيد لا يباح فيه ما كان محرماً، إنما يتوسع فيه في بعض المباحات، كالتزين وأكل الطيبات ونحوها.

الثاني: أن العيد يستحب فيه إدخال السرور على النفس وعلى الناس فيشعر الناس فيه بالبهجة والفرح. ويقاس على العيد كل مناسبة سارة، ولو كانت مجرد اجتماع الأصدقاء على طعام أو نحوه.

٢ - حديث الربيع بنت معوذ:

روى الإمام البخاري في كتاب النكاح من صحيحه باب ضرب الدف في النكاح والوليمة عن الربيع بنت معوذ، قالت: جاء رسول الله ﷺ، فدخل عليّ صبيحة عرسي، فجلس عليّ فراشي كمجلسك مني، فجعلت جوهرات لنا يضربن بدف لهن، ويندبن من قتل من آبائي يوم بدر، إلى أن قالت إحداهن: ... وفيما نبي يعلم ما في غد.

فقال رسول الله ﷺ: «دعى هذا، وقولي ما كنت تقولين»^(١) ورواه ابن ماجة من طريق ابن أبي شيبه عن الحسن المدني قال: كنا بالمدينة يوم عاشوراء، والجواري يضربن بالدف ويتغنين، فدخلنا على الربيع بنت معوذ صحابية معروفة فذكرنا ذلك لها، فقالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ صبيحة عرسي، وعندى جاريتان تغنيان، وتندبان آبائي الذين قتلوا يوم بدر، وتقولان فيما تقولان: وفيما نبي يعلم ما في غدا! فقال: «أما هذا فلا تقولو، لا يعلم ما في غد إلى الله عز وجل»^(٢).

٣ - حديث «ما كان معهم لهو؟»:

ومن الأحاديث الصحيحة الدالة على إباحة الغناء: حديث العروس التي زفتها عائشة رضي الله عنها وكانت قريبة لها - إلى زوجها من الأنصار، زافاً صامتاً، فكأن رسول الله ﷺ لامها أو عاتبها على ذلك.

(١) رواه البخاري (٤٠٠١) في المغازي: و(٥١٤٧) في النكاح، وأبو داود (٤٩٢٢) في الأدب، والترمذي (١٠٩٠) في النكاح: باب ما جاء في إعلان النكاح، والنسائي في (الكبرى) كما في «التحفة» ٣٠٢/١١، وابن حبان في صحيحه (٥٨٧٨) والبيهقي ٢٨٩/٧ من طرق عن بشر بن المفضل، بهذا الإسناد.

(٢) انظر: ابن ماجة في النكاح (١٨٩٧) ورواه كذلك أحمد (٣٥٩/٦، ٣٦٠).

فقد روى البخارى وأحمد عن عائشة أنها زفت امرأة إلى رجل من الأنصار فقال النبي ﷺ: «يا عائشة، ما كان معهم لهو؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو»^(١).

ورواه ابن حبان فى صحيحه عن عائشة قالت: كان فى حجرى جارية من الأنصار، فزوجتها، فدخل على رسول الله ﷺ يوم عرسها، فلم يسمع غناء ولا لهوا، فقال: يا عائشة هل غنيتم عليها، أو لا تغنون عليها؟ ثم قال: «إن هذا الحى من الأنصار يحبون الغناء»^(٢).

وروى ابن ماجه عن ابن عباس قال: أنكحت عائشة ذات قرابة لها من الأنصار، فجاء رسول الله ﷺ فقال: «أهديتم الفتاة؟ قالوا: نعم. قال: «أرسلتم معها من يغنى؟» قالت: لا. فقال رسول الله ﷺ: «إن الأنصار قوم فيهم غزل، فلو بعثتم معها من يقول: أتيناكم أتيناكم.. فحيانا وحياكم؟!»^(٣).

وهذا الحديث يدل على رعاية أعراف الأقوام المختلفة، واتجاههم المزاجى، ولا يحكم المرء مزاجه هو فى حياة كل الناس.

ومن اللطائف فى هذا الحديث: أن الرسول الكريم عليه الصلاة السلام - كما جاء فى بعض الروايات - اقترح عليهم نص الأغنية التى يمكن أن يغنوها فى هذه المناسبة السارة، ويبدو أن أبياتها كانت معروفة وتنشد لديهم، وهى قوله: هلا أتيتم من تغنى وتقول:

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحياكم
ولولا الذهب الأحمر ما حلت بواديكم
ولولا الحبة السوداء ما سرت عذارىكم

وفى بعض الروايات: ما سمنت عذارىكم.

والحديث حسنه الشيخ الألبانى فى كتابه (إرواء الغليل)^(٤) وفى غيره.

٤ - حديث «إن كنت نذرت فاضربى»:

ذكر الجد ابن تيمية فى (المنتقى) باب ضرب النساء بالدف لقدم الغائب

(١) رواه البخارى. (٢) انظر: ابن حبان: (الإحسان: ٥٨٧٥) ورواه ثقات.

(٣) ابن ماجه برقم (١٩٠٠).

(٤) الحديث (١٩٩٥).

وما فى معناه ذكر فيه حديث بريدة قال: «خرج رسول الله ﷺ فى بعض مغازيه فلما انصرف جاءت جارية سوداء فقالت: يا رسول الله، انى كنت نذرت - إن ردك الله سالما - أن أضرب بين يديك بالدف وأتغنى، قال لها: «إن كنت نذرت فاضربى، وإلا فلا» فجعلت تضرب، فدخل أبو بكر وهى تضرب، ثم دخل على وهى تضرب، ثم دخل عثمان وهى تضرب، ثم دخل عمر، فألقت الدف تحت استها، ثم قعدت عليه، فقال رسول الله ﷺ: إن الشيطان ليخاف منك يا عمر، إنى كنت جالسا وهى تضرب؛ فدخل أبو بكر وهى تضرب؛ ثم دخل على وهى تضرب، ثم دخل عثمان وهى تضرب؛ فلما دخلت أنت يا عمر ألقت الدف» رواه أحمد والترمذى وصححه (١).

قال الشوكانى فى شرح الحديث: وفى الباب عن عبد الله بن عمرو عن أبى داود، وعن عائشة عند الفاكهانى فى تاريخ مكة بسند صحيح.

وقد استدلل المصنف بحديث الباب على جواز ما دل عليه الحديث (من الغناء والضرب بالدف) عند القدوم من الغيبة. والقائلون بالتحريم يخصون مثل ذلك من عموم الأدلة على المنع. وأما المجوزون فيستدلون به على مطلق الجواز لما سلف. وقد دلت الأدلة على أنه لا نذر فى معصية الله، فالإذن منه ﷺ لهذه المرأة بالضرب يدل على أن ما فعلته ليس بمعصية فى ذلك الوطن. وفى بعض ألفاظ الحديث أنه قال لها: «أوفى بنذرك».

وأخرج النسائى: «أنه ﷺ قال لعبد الله بن رواحة: حرك القوم، فاندفع يرتجز» (٢). انتهى.

٥ - حديث «رخص لنا اللهو فى العرس»:

ومما استدلل به المبيحون للغناء: ما رواه ابن أبى شيبة والنسائى:

(١) رواه أحمد فى مسند بريدة برقم (٢٢٩٨٩) وقال مخرجو المسند: إسناده قوى من أجل حسين - وهو ابن واقد المروزى - فهو صدوق لا بأس به، وباقى رجاله ثقات رجال الصحيح وأخرجه ابن أبى شيبة (٢٩/١٢) ومن طريق ابن أبى عاصم فى (السنة) برقم (١٢٥١) وابن حبان (٦٨٩٢) .. وأخرجه الترمذى (٣٦٩٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث بريدة. والبيهقى (٧٧/١٠).

وفى باب قصة نذر المرأة أن تضرب بالدف عند النبى ﷺ عن عبد الله بن عمرو بن العاص عند أبى داود (٣٣١٢) ومن طريقة البيهقى (٧٧/١٠) وإسناده حسن فى المتابعات والشواهد. (٢) نيل الأوطار ج ٨، ص: ٣٢، ٣٣.

عن عامر بن سعد قال : دخلت على أبي مسعود، وقرظة بن كعب،
وعندهما جوار يغنين، فقلت : أتفعلون هذا وأنتم أصحاب رسول الله ﷺ؟ قال :
فقالا : إنه رخص لنا الله عند العرس (١). وفي رواية النسائي : اجلس إن شئت
فاسمع معنا وإن شئت اذهب : قد رخص لنا في اللهو عند العرس (٢).

توقف بعضهم عند كلمة (رخص لنا) في الحديث؛ ليأخذ منها: أن
الأصل هو المنع، وأن الرخصة جاءت على خلاف الأصل، وهي مخصوصة
بالعرس، فتقصر عليه.

ونسى هؤلاء أن مثل هذا التعبير يأتي فيما يراد به التيسير ولازمه في أمر
كان يتوقع فيه التشديد والمنع.

فهو من باب قوله تعالى في الصفا والمروة ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾
مع أن الطواف بهما فرض واجب، أو ركن.

وقوله ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ
دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ لما كان يظن أن بر
المخالف في الدين أمر مرغوب عنه.

٦ - حديث «تحيين أن تغنيك»... فغنتها :

وحديث آخر رواه النسائي في (عشرة النساء) عن السائب بن يزيد : أن
امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقال :
«يا عائشة، تعرفين هذه؟»
قالت : لا، يا نبي الله.

قال : «هذه قينة بنى فلان، تحيين أن تغنيك؟» فغنتها (٣).

فهنا نجد الرسول الكريم - وهو خير الناس الأهل - يعرض على عائشة أن
تغنيها هذه القينة لبنى فلان، تلطفا بها، ورعاية لسنها.

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه : ١٩٢/٤

(٢) رواه النسائي في النكاح باب اللهو والغناء عند العرس، وحسنه الألباني في صحيح

النسائي ج ٢ ص (٧١٢) رقم (٣١٦٨).

(٣) رواه النسائي في عشرة النساء، حديث (٧٤).

فدل هذا على إباحة الغناء من القينة، لأنه عليه الصلاة والسلام لا يأذن في حرام. كما يدل على وجود القينات المغنيات في العصر النبوي، ولم ينكر وجودهن. ودل على إباحة الغناء في غير العيد وفي غير العرس، على خلاف ما يقوله دعاة التحريم.

٧ - حديث «فصل ما بين الحلال والحرام الدف والصوت في النكاح»:

قال الألباني في (الإرواء):

حديث حسن: أخرجه النسائي (٩١/٢) والترمذي (٢٠٢/١) وابن ماجة (١٨٩٦) والحاكم (١٨٤/٢) والبيهقي (١٨٩/٧) وأحمد (٤١٨/٣) و٤/٢٥٩) من طرق عن أبي بلج حدثنا محمد ابن حاطب عن النبي ﷺ وقال الترمذي:

«حديث حسن، وأبو بلج اسمه يحيى بن أبي سليم ويقال: ابن سليم أيضاً، ومحمد بن حاطب قد رأى النبي ﷺ، وهو غلام صغير». وقال الحاكم: صحيح الإسناد وافقه الذهبي:

ورجح الألباني أنه حسن فقط، لأن أبا بلج هذا تكلم فيه بعضهم^(١).

* * *

(١) انظر: الحديث (١٩٩٤) من الإرواء.

٣ - هدى الصحابة والتابعين

والشريحة الثالثة من الأدلة: هي هدى الصحابة رضوان الله عليهم، وهم تلاميذ مدرسة النبوة، الذين تخرجوا على يدى رسول الله ﷺ، والذين يعتبرون (الجيل النموذجي) للمسلمين، الجيل الذى زكاه القرآن الكريم فى آيات شتى من سورة الأنفال، وسورة التوبة وسورة الفتح وسورة الحشر وغيرها وزكاهم النبى الكريم فى عدد من أحاديثه، وهم قرن الرسول الذى يعتبر خير القرون وأفضلها على الإطلاق. وقد كانوا أحرص الناس على اتباع منهج الإسلام فى أنفسهم، وتعليمه لغيرهم، كما كانوا أفقه أجيال الأمة للإسلام نصا وروحا.

فمن كان يأخذ بأقوال الصحابة من الفقهاء، ويعتبرها من الأدلة الشرعية، فسيجد فى أقوالهم هنا مجالا رحبا للاستدلال.

ومن لم يعتبر أقوالهم فى ذاتها حجة شرعية - وأنا منهم - فسيجد فيها تأييدا قويا لما دلت عليه نصوص القرآن والسنة النبوية، ولأصل الإباحة.

ما جاء عن عمر:

وسنبدا هنا بما جاء عن الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وهو أشدهم فى أمر الله - كما جاء فى الحديث (١). وكما دلت عليه وقائع شتى تنبىء عنه صلابته فى الدين، وأخذ نفسه بعزائمه، وعدم تساهله فى أمر من أموره، وقد رأيناه - حين رأى الحبشة يزفنون ويرقصون بحرابهم فى المسجد النبوى - يحصبهم بالحصى، حتى نهاه الرسول، وقال له: دعهم يا عمر.

عمر هذا الشديد الصلب القوى، جاءت عنه روايات عدة تحكى أنه تغنى فى نفسه، وسمح لبعض أصحابه - ممن أتقنوا الغناء - أن يغنوا للركب، ولم

(١) إشارة إلى الحديث الذى رواه أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه، وابن حبان والحاكم والبيهقى مرفوعا عن أنس: «أرحم أمتى بامتى أبو بكر، وأشدهم فى أمر الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان ... إلخ» وذكره فى صحيح الجامع الصغير (٨٩٥).

يجد من دين الله ما يمنعه من ذلك . ولو كان هناك مانع من الشرع لوقف صخرة عاتية دون انتهاكه .

روى عن عبد الله بن عوف قال : أتيت باب عمر رضى الله عنه ، فسمعته

يغنى :

فكيف ثوائي بالمدينة بعد ما قضى وطرا منها جميل بن معمر؟

أراد به : جميلا الجمحي ، وكان خاصا به ، فلما استأذنت عليه قال :

أسمعت ما قلت؟ قلت : نعم . قال : إنا إذا خلونا قلنا ما يقول الناس في بيوتهم^(١) .

وذكر الحافظ في (الإصابة) في ترجمة (خوات بن جبير) الأوسى

الأنصاري ، وهو معتبر من أهل بدر من الصحابة ، وقد شهد بعدها أحدا والمشاهد

كلها مع رسول الله ﷺ . قال : روى السراج في تاريخه بسنده عن خوات بن جبير

قال : خرجنا حجاجا مع عمر ، فسرنا في ركب فيهم أبو عبيدة بن الجراح ، وعبد

الرحمن بن عوف ، فقال القوم : غننا من شعر ضرار ، فقال عمر : دعوا أبا عبد الله ،

فليغننا من بنيات فؤاده - يعني من شعره هو - قال : فمازلت أغنيهم ، حتى كان

السحر ، فقال عمر : ارفع لسانك يا خوات ، فقد أسحرنا^(٢) !

يعنى : أن هذا وقت الاستغفار وذكر الله ، وليس وقت اللهو والترويح ، قال

تعالى : ﴿ وَالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات : ١٨] .

وروى الحافظ ابن طاهر بسنده إلى ابن شهاب الزهري قال : حدثني إبراهيم

ابن عبد الله بن أبي ربيعة أن الحارث بن عبيد الله بن عياش أخبره أنه كان يسير مع

عمر بن الخطاب في طريق مكة في خلافته ، ومعه المهاجرون والأنصار ، فترنم عمر

ببيت ، فقال له رجل من أهل العراق ليس معه عراقى غيره : فليقلها غيرك يا أمير

(١) نقله الألوسى في تفسيره ج ٢١ / ٧١ .

(٢) انظر : الإصابة ج ١ / ٤٥٧ الترجمة رقم (٢٢٩٨) والاستيعاب على هامش الإصابة

ج ١ / ٤١٤٧ / ٤٠٤٨ والبيهقى (٥ / ٦٩) .

المؤمنين! فاستحيا عمر، وضرب راحلته حتى انقطعت من الموكب. قال ابن طاهر: وإسناد هذه الحكاية كالأخذ باليد^(١) أى فى الصحة.

ويزيد ذلك وضوحا ما رواه ابن طاهر بسنده عن يحيى بن عبد الرحمن قال: خرجنا مع عمر بن الخطاب فى الحج الأكبر^(٢) حتى إذا كان عمر بالروحاء^(٣) كلم الناس رباح^(٤) بن المعترف وكان حسن الصوت بغناء الأعراب، فقالوا: أسمعنا وقصر عنا الطريق، فقال: إني أفرق من عمر. قال فكلم القوم عمر: إنا كلمنا رباحا يسمعنا ويقصر عنا المسير، فأبى إلا أن تأذن له، فقال له: يا رباح، أسمعهم وقصر عنهم المسير، فإذا أسحرت فارفع، وخذلهم^(٥) من شعر ضرار بن الخطاب، فرفع عقيرته^(٦) يتغنى وهم محرمون^(٧)!

وذكر الحافظ ابن حجر فى (الإصابة) فى ترجمة (رباح ابن المعترف) قال: روى شعيب عن الزهرى عن السائب بن يزيد قال: بينما نحن مع عبد الرحمن ابن عوف فى طريق الحج، اعتزل عبد الرحمن، ثم قال لرباح بن المعترف: غننا يا أبا حسن فذكر قصته. وقد كان رباح شريك عبد الرحمن فى التجارة.

وروى إبراهيم الحربى فى غريب الحديث من طريق عثمان بن نائل عن أبيه، قلنا لرباح بن المعترف: غننا بغناء أهل بلدنا! فقال: مع عمر؟ قلنا: نعم، فإن نهاك فانتة.

وذكر الزبير بن بكار أن عمر مر به ورباح يغنيهم غناء الركبان، فقال: ما

(١) كالأخذ باليد: أى كأنها شىء ملموس لقوة ثبوته ووضوحه.

(٢) الحج الأكبر: هو الحج الكامل، والعمرة: هى الحج الأصغر.

(٣) موضع بين الحرمين على ثلاثين أو أربعين ميلا من المدينة: قاموس.

(٤) فى كتاب ابن طاهر. الذى نشر فى القاهرة: رباح، وأحسبها غلظة مطبعية، والتصويب من الاستيعاب والإصابة، وهو قرشى فهري، له صحبه، وكان شريك عبد الرحمن بن عوف فى التجارة. انظر ترجمته فى الإصابة رقم (٢٥٦١).

(٥) فى النهاية: واحداهم (١٩٠/٤).

(٦) عقيرته: صوته، فى القاموس: العقيرة: صوت المغنى والقارى والباكى.

(٧) من كتاب السماع لابن طاهر (ابن القيسرانى) ص ٤١، ٤٢.

هذا؟ قال له عبد الرحمن: غير ما بأس، يقصر عنا السفر، فقال: إذا كنتم فاعلين فعليكم بشعر ضرار بن الخطاب^(١).

وقال ابن عبد البر فى الاستيعاب: وكان يغنيهم غناء النصب^(٢).

وذكر الإمام أبو إسحاق الشاطبى فى كتابه (الاعتصام) قال:

حكى أبو الحسن القرافى الصوفى عن الحسن: أن قوما أتوا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقالوا: يا أمير المؤمنين! إن لنا إمام إذا فرغ من صلاته تغنى. فقال عمر: من هو؟ فذكر الرجل. فقال: قوموا بنا إليه، فإننا إن وجهنا إليه يظن أننا تجسنا عليه أمره. قال: فقام عمر مع جماعة من أصحاب النبي ﷺ حتى أتوا الرجل وهو فى المسجد، فلما أن نظر إلى عمر قام فاستقبله فقال: يا أمير المؤمنين ما حاجتك؟ وما جاء بك؟ إن كانت الحاجة لك فأحق من عظمناه خليفة رسول الله ﷺ. قال له عمر: ويحك! بلغنى عنك أمر ساءنى. قال: وما هو يا أمير المؤمنين. قال: أتممجن فى عبادتك؟ قال: لا يا أمير المؤمنين، لكنها عظة أعظ بها نفسى. قال عمر: قلها، فإن كان كلاما حسنا قلته معك، وإن كان كلاما قسيحا نهيتك عنه. فقال:

وفؤاد كلما عاتبته	فى مدى الهجران يبغي تعبى
لا أراه الدهر إلا لا هيا	فى تماديه، فقد برح بى
يا قرين السوء ما هذا الصبا	فنى العمر كذا فى اللعب
وشباب بان عنى فمضى	قبل أن أقضى منه أربى
ما أرجى بعنده إلا الفنا	ضيق الشيب على مطلبى
ويح نفسى لا أراها أبدا	فى جميل لا ولا فى أدب
نفس لا كنت ولا كان الهوى	راقبى المولى وخافى وارهبى

(١) انظر: الإصابة ج ١/ ٥٠٢. وانظر: السنن الكبرى (١٠/ ٢٢٤) وفيها: رباح بن المغترف بالغين المعجمة وأحسبها غلطة مطبعية.

(٢) انظر: الاستيعاب على هامش الإصابة ج ١/ ٥٢٠.

قال : فقال : عمر رضى الله عنه :

نفس لا كنت ولا كان الهوى راقبى المسولى وخافى وارهبى
ثم قال عمر : على هذا فليغن من غنى (١) .

وروى ابن طاهر عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر مر برجل يتغنى ، فقال :
إن الغناء زاد المسافر (٢) .

وهذه الروايات أثبتت مع سماع عمر : سماع أبى عبيدة ، وعبد الرحمن بن
عوف ، وخوات بن جبير ، وغيرهم من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين
والأنصار .

ما جاء عن عثمان :

وأما الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فقد نقل القاضى أبو
الحسن الماوردى فى كتابه (الحاوى) فى فقه الشافعية ، وكذلك صاحب (البيان)
وغيرهما : أنه كانت له جاريتان تغنيان له ، فإذا جاء وقت السحر ، قال لهما :
أمسكا فإن هذا وقت الاستغفار (٣) !

ما جاء عن عبد الرحمن بن عوف :

وقد ذكرنا فى حديثنا عن عمر : أن عبد الرحمن بن عوف - وهو أحد
العشرة المبشرة وأحد الستة أصحاب الشورى - كان يستمع إلى شريكه فى
التجارة : رباح بن المعترف ، ويقول له : غننا يا أبا حسان : ولما مر بهم عمر ورأى
هذا سأل : ما هذا؟ قال له عبد الرحمن : غير ما بأس ، يقصر عنا السفر .

ولعل هذا الاتجاه المزاجى عند عبد الرحمن هو ما ورثته ذريته من بعده ،
واشتهر عند أحفاده ، الذين كانوا من علماء المدينة ، مثل سعد بن إبراهيم بن
مالك ، وابنه إبراهيم بن سعد ، الإمام الثقة المحدث المعروف . وسأتى ذكره فيما
بعد .

(٢) السماع لابن طاهر ص ٤٢ .

(١) الاعتصام للشاطبى (٢/٣٢٢/٣٢١) .

(٣) إتحاف السادة المتقين للزبيدى ج ٧/٥٦٧ .

ما جاء عن سائر العشرة المبشرة:

وقد مر بنا مشاركة أمين الأمة أبي عبيدة بن الجراح في السماع في عهد عمر، وروى كذلك سماع سعد بن أبي وقاص، رواه ابن قتيبة في كتاب (الرخصة في السماع).

ولم أجد فيما قرأت شيئا لأمير المؤمنين على كرم الله وجهه. إلا ما روى أن عبد الله بن جعفر كان يستمع إلى جواريه ويلحن لهم في عهد على رضى الله عنه.

ولعل ميله إلى الزهد والتقشف، ثم انشغاله رضى الله عنه بالحروب في عصره، ومقاومة الفتن التي انطلق شررها، وخطرها، في عهده، لم تدع له وقتا للترويح، ولا للهو، مع أنه هو الذى قال: روحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلب إذا أكره عمى!

أبو مسعود وقرظة وثابت بن يزيد:

وقد تقدم ما رواه النسائي عن عامر بن سعد قال: دخلت عن قرظة بن كعب وأبى مسعود الأنصارى فى عرس، وإذا جوار يتغنين، فقلت: أنتم أصحاب رسول الله ﷺ وأهل بدر، يفعل هذا عندكم؟! قال: فاجلس فإن شئت فاسمع معنا، وإن شئت فاذهب، فقد رخص لنا فى اللهو عند العرس.

وترجم الحافظ فى (الإصابة) لثابت بن يزيد الأنصارى، فذكر أن البارودى وأبا نعيم خرجا من طريق شريك عن ابن إسحاق عن عامر بن سعد قال: دخلت على قرظة بن كعب، وثابت بن يزيد، وأبى مسعود وعندهم جوار وأشياء فقلت: تفعلون هذا وأنتم من الصحابة؟ قالوا: رخص لنا فى اللهو عند العرس^(١).

ما جاء عن عبد الله بن جعفر:

ومن الصحابة الذين اشتهر عنهم السماع مع الآلات: عبد الله بن جعفر بن

(١) انظر: الإصابة ج ١/ ٢٠٩ ترجمة (٩٩٧). وسنن البيهقى (١٠/ ٢٢٥).

أبى طالب أحد أسخياء بنى هاشم، وأجواد المسلمين. أبوه جعفر الطيار، وأمه أسماء بنت عميس، توفي وهو ابن ثمانين، سنة ٨٠هـ. روى له الجماعة. نقل ذلك الشيخ أبو طالب المكي في كتابه (قوت القلوب).

وقال العلامة كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب الأدفوى المصرى فى كتابه (الإمتاع): وأما عبد الله بن جعفر بن أبى طالب رضى الله عنهما، فسمع الغناء عنه مشهور ومستفيض، نقله عنه كل من أمعن فى المسألة من الفقهاء والحفاظ وأهل التاريخ الأثبات.

وقال ابن عبد البر فى الاستيعاب: أنه كان لا يرى بالغناء بأساً^(١).

وذكر ابن عبد البر ما روى أن ابن جعفر كان إذا قدم على معاوية أنزله داره، وأظهر له من بره وإكرامه ما يستحقه، فكان ذلك يغيظ زوجته فاخته. فسمعت ليلة غناء عند ابن جعفر، فجاءت إلى معاوية، وقالت: هلم فاسمع ما فى منزل هذا الرجل الذى جعلته بين لحمك ودمك! فجاء معاوية، فسمع وانصرف.. فلما كان فى آخر الليل سمع معاوية قراءة عبد الله بن جعفر، فجاء فنبه فاخته، فقال: اسمعى مكان ما أسمعنى^(٢). يريد معاوية أن للهو ساعة، وللعبادة ساعة عند المؤمن، كما قال الرسول الكريم ﷺ لحنظلة: ساعة وساعة!

وقال الأستاذ أبو منصور البغدادي فى مؤلفه فى (السماع): كان عبد الله ابن جعفر - مع كبر شأنه - يصوغ الألحان لجواريه، ويسمعها منهن على أوتاره. وروى الزبير بن بكار بسنده: أن عبد الله بن جعفر راح إلى منزل جميلة. (وهى مغنية معروفة فى عصر الصحابة) يستمع منها، لما حلفت أنها لا تغنى لأحد إلا فى بيتها! وغنت له، وأرادت أن تكفر عن يمينها، وتأتيه ليستمعه منها، فمنعها^(٣).

(١) انظر: الاستيعاب على هامش الإصابة (٢٧٦/٢).

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: الإحياء، وشرحه للزبيدي جـ ٥٦٦/٧.

ما جاء عن عبد الله بن الزبير :

وذكر أبو طالب المكي وغيره من الصحابة الذين استمعوا إلى الغناء : عبد الله بن الزبير، وهو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد القرشي الأسدي أبو بكر المدني، وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق، وكان فصيحاً ذا لسان وشجاعة. بويع له بالخلافة بعد موت يزيد بن معاوية، وقتله الحجاج بمكة في أيام عبد الملك بن مروان سنة ثلاث وسبعين، وروى له الجماعة. وروى الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد في كتابه (اقتناص السوانح) بسنده عن وهب بن سنان قال : سمعت عبد الله بن الزبير رضي الله عنه يترنم بالغناء .

وقال عبد الله : قلما سمعت رجلاً من المهاجرين إلا وهو يترنم، وقال إمام الحرمين وابن أبي الدم : إن الأثبات من أهل التواريخ نقلوا أنه كان لعبد الله بن الزبير جوار عوادات، وإن ابن عمر دخل عليه فرأى العود فقال : ما هذا يا صاحب رسول الله؟ فناوله له فتأمله ابن عمر وقال : هذا ميزان شامي، فقال ابن الزبير : توزن به العقول ! وحكى سماع الغناء عنه أيضاً الشيخ تاج الدين الفزاري، نقل هذا كله الأدفوى في الإمتاع .

المغيرة ومعاوية وابن العاص وغيرهم :

ومنهم المغيرة بن شعبه بن أبي عامر بن مسعود أبو عبد الله الثقفي، كان يعد من دهاة العرب . وقد حكى سماعه الشيخ تاج الدين الفزاري وغيره، وكان كثير النكاح والتزويج .

ومعاوية بن أبي سفيان الأموي . روى ابن قتيبة بسنده : أن معاوية سمع عند ابنه يزيد بالغناء على العود فطرب لذلك، وذكر حكاية مطولة وساقها أيضاً المبرد في الكامل . وقال ابن قتيبة في كتاب الرخصة : دخل معاوية على عبد الله ابن جعفر يعود فوجد عنده جارية في حجرها عود فقال : ما هذا يا ابن جعفر؟ فقال : هذه جارية أرويهما رقيق الشعر فتزیده حسناً لحسن تغنيها فقال : فلتقل فحركت العود فغنت :

أليس عندك شكر للتي جعلت ما أبيض من قدامات الرأس كالحمم
وجددت منك ما قد كان أخلقه طول الزمان وصرف الدهر والقدم؟
قال: فحرك معاوية رجله، فقال له عبد الله: لم حركت رجلك؟ فقال: إن
الكريم طروب!

وحكى الماوردي في الحاوي أن معاوية وعمرو بن العاص مضيا إلى عبد الله
ابن جعفر لما استكثر من سماع الغناء وانقطع إليه، واشتغل به، فمضيا إليه
ليكلماه في ذلك، فلما دخل عليه سكتت الجوارى، فقال له معاوية: مرهن
يرجعن إلى ماكن عليه، فرجعن فغنين معاوية، فحرك رجله على السرير، فقال له
عمرو: إن من جئت تلحاه أحسن حالا منك. فقال له معاوية: إليك يا عمرو،
فإن الكريم طروب^(١).

أسامة بن زيد:

ومنهم أسامة بن زيد، حب رسول الله ﷺ، وابن حبه.

روى عبد الرزاق في (مصنفه) عن معمر بن الزهري عن عمر بن عبد
العزيز عن عبد الله بن الحارث بن نوفل، قال: رأيت أسامة بن زيد جالسا في
المسجد، رافعا إحدى رجليه على الأخرى، رافعا عقيرته، قال: حسبت أنه قال:
يتغنى النصب^(٢).

والنصب: ضرب من أغاني الأعراب يشبه الحداء. قاله أبو عبيد.

عبد الله بن الأرقم:

ومنهم عبد الله بن الأرقم بن أبي الأرقم.

روى البيهقي في السنن عن الزهري عن عبيد بن عبد الله بن عتبة (ابن
مسعود): أن أباه أخبره أنه سمع عبد الله بن الأرقم رافعا عقيرته يتغنى. قال

(١) المصدر السابق ج ٧/٥٦٦، ٥٦٧.

(٢) ج ٥/١١. الأثر (٩١٧٣٩) ورواه البيهقي في السنن (٢٢٤/١٠) من طريق

المصنف ومن طريق آخر أيضاً.

عبد الله بن عتبة (راوى هذا الخبر): ولا والله، ما رأيت رجلا قط ممن رأيت وأدركت - قال - كان أخشى لله من عبد الله بن الأرقم^(١). وكذا قال السائب ابن يزيد^(٢). وروى عن عمر أيضاً^(٣).

وكان عبد الله قد أسلم يوم الفتح، وكتب للنبي ﷺ، ولأبى بكر، ولعمر. وكان على بيت المال أيام عمر؟ وحدثت عنه حفصة أنه قال لها: لولا أن ينكر على قومك لاستخلفت عبد الله بن الأرقم!
وكان يأمره النبي ﷺ أن يكتب إلى بعض الملوك، فيكتب ويختم ولا يقرأه، لأمانته عنده^(٤).

عمران بن حصين:

ومنهم عمران بن حصين.

روى البخارى فى (الأدب المفرد) عن مطرف بن عبد الله قال: صحبت عمران (بن حصين) من الكوفة إلى البصرة، فقل منزل بنزلة إلا وهو يتغنى شعرا^(٥).

ورواه عبد الرزاق، إلا أنه قال: من البصرة إلى مكة، فكان ينشد فى كل يوم، ثم قال لى: إن الشعر كلام، وإن من الكلام حقاً وباطلاً^(٦).

بلال بن رباح:

وروى عبد الرزاق، والبيهقى من طريقه - واللفظ له - قال: قال عبد الله بن الزبير، وكان متكئاً: تغنى بلال! قال له رجل: تغنى؟ فاستوى جالسا، ثم قال: وأى رجل من المهاجرين لم أسمعه يتغنى النصب^(٧)؟

(١) السنن الكبرى (٢٢٥/١٠).

(٢) الإصابة لابن حجر (٢٧٣/٢) ترجمة (٤٥٢٥).

(٣) الاستيعاب لابن عبد البر على هامش الإصابة (٢٦٢/٢).

(٤) الإصابة المذكور والاستيعاب (٢٦٠/٢ - ٢٦٢).

(٥) الأدب المفرد ص ١٢٤. (٦) المصنف ج ١١/٥ الأثر (١٩٧٤٠).

(٧) السنن الكبرى (٢٢٥/١٠) والمصنف (٥/١١) الأثر (١٩٧٤١).

حسان بن ثابت :

وروى صاحب الأغاني ، والمبرد في الكامل وغيرهما عن خارجة بن زيد قال : دعينا إلى مأدبة، فحضرنا، وحضر حسان بن ثابت، وكان قد ذهب بصره، ومعه ابنه عبد الرحمن، فجلسنا جميعا على مأدبة، فلما فرغ الطعام أتونا بجاريتين مغنيتين، إحداهما: ربيعة والأخرى عزة الميلاء، فجلست وأخذت بمزهريهما، وضربتنا ضربا عجيبا، وغنتا بشعر حسان :

فلا زال قصر بين بصرى وجلق عليه من الوسمى جود ووابل!

فأسمع حسانا يقول : قد أراني هناك سميعا بصيرا، وعينه تدمعان، فإذا سكتتا سكنت عينه، وإذا غنتا بكى ! وكنت أرى عبد الرحمن ابنه إذا سكتتا يشير إليهما : أن غنيا^(١)!

وآخرون من الصحابة :

ومنهم حمزة بن عبد المطلب وقصته في الصحيحين، ومنهم عبد الله بن عمر رواه ابن طاهر وابن حزم وابن أبي الدم، ومنهم البراء بن مالك رواه أبو نعيم الحافظ وابن دقيق العيد، ومنهم النعمان بن بشير رواه صاحب الأغاني وصاحب العقد وشارح المقنع، ومنهم عبید الله بن عمرو رواه الزبير بن بكار في الموفقيات، ومنهم عائشة الصديقية وردت أحاديث كثيرة في سماعها^(٢). ومنهم علي بن هبار الأسدي، ذكره ابن حجر في (الإصابة)^(٣).

موقف ابن مسعود :

ويظهر من الروايات والآثار الواردة في قضية الغناء : أن عبد الله بن مسعود رضی الله عنه، كان من أشد الصحابة - بل لعله أشدهم - في موقفه من الغناء . وقد ذكرنا قوله : الغناء ينبت النفاق في القلب .

(١) ذكره الزبيدي في شرح الإحياء، وقال : ذكر ذلك أيضاً صاحب التذكرة الحمدونية وابن المزيان جـ ٧/٥٦٩ . وانظر أيضاً : الأغاني : (١٧/١٦٧، ١٦٩) .
(٢) الإتحاف، وشرح الإحياء جـ ٧ ص ٥٦٨ . (٣) الإصابة (٢/٥١٠، ٥١١) .

ويبدو من سيرته أنه كان رجلاً جاداً وليس للهو في حياته نصيب .

وقد تجلّى أثر تشدد ابن مسعود في موقف أصحابه . فقد روى ابن أبي شيبه بسند صحيح إلى إبراهيم (النخعي) قال : كان أصحاب عبد الله يستقبلون الجوارى في الأزقة معهن الدفوف ، فيشقونها (١) .

ولعل هذا هو الذى أثر في موقف المذهب الحنفى وتشدده في الغناء ، على غير المتوقع منه في مثل هذه الأمور . ولكن من المعروف لدى الدارسين : أن أبا حنيفة وأصحابه هم خريجو (المدرسة المسعودية) في الكوفة ، والتي أسسها عبد الله بن مسعود رضى الله عنه وقام عليها من بعده تلاميذه : الأسود وعلقمة وغيرهما ، وفيها تخرج إبراهيم النخعي ، وعليه تتلمذ حماد شيخ أبي حنيفة . مع أن الأصل في المذهب الحنفى هو التشديد والتضييق في قضية التحريم والإيجاب .

اختلاف موقف ابن عمر :

ومن الصحابة الذين اختلفت الرواية عنهم في موقفهم من الغناء والسماع : عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، فقد روى عنه أنه سمع كما أسلفنا من قبل ، وروى ابن حزم أنه شجع على بيع بعض الجوارى المغنيات لعبد الله بن جعفر .

كما روى خلاف ذلك ، كما ذكره الغزالي في الإحياء ، وهو يعرض حجج القائلين بتحريم السماع .

قالوا : ومروا على ابن عمر رضى الله عنهما قوم محرمون وفيهم رجل يتغنى فقال : ألا لا أسمع الله لكم ، ألا لا أسمع الله لكم . وعن نافع أنه قال : كنت مع ابن عمر رضى الله عنهما في طريق ، فسمع زمارة راع ، فوضع أصبعيه في أذنيه ، ثم عدل عن الطريق ؛ فلم يزل يقول : يا نافع أتسمع ذلك ؟ حتى قلت : لا ، فأخرج أصبعيه وقال : هكذا رأيت رسول الله ﷺ صنع (٢) .

وأما قول ابن عمر رضى الله عنهما : ألا لا أسمع الله لكم . فلا يدل على

(١) مصنف بن أبي شيبه (١٩٣ / ٤ ، ١٩٤) طبعة الدار السلفية . بومباى - الهند .

(٢) تقدم تخريجه في أدلة المحرمين .

التحريم من حيث إنه غناء، بل كانوا محرمين ولا يليق بهم الرفث، وظهر له من مخايلهم أن سماعهم لم يكن لوجد وشوق إلى زيارة بيت الله تعالى، بل لمجرد اللهو، فأنكر ذلك عليهم لكونه منكرا بالإضافة إلى حالهم وحال الإحرام. وحكايات الأحوال تكثر فيها وجوه الاحتمال. وأما وضعه أصبعيه في أذنيه فيعارضه أنه لم يأمر نافعاً بذلك ولا أنكر عليه سماعه، وإنما فعل ذلك هو لأنه رأى أن ينزه سمعه في الحال وقلبه عن صوت ربما يحرك اللهو ويمنعه عن فكر كان فيه أو ذكر هو أولى منه. وكذلك فعل رسول الله ﷺ - مع أنه لم يمنع ابن عمر - لا يدل أيضا على التحريم. بل يدل على أن الأولى تركه. ونحن نرى أن الأولى تركه في أكثر الأحوال، بل أكثر مباحات الدنيا الأولى تركها إذا علم أن ذلك يؤثر في القلب. فقد خلع رسول الله ﷺ بعد الفراغ من الصلاة ثوب أبي جهم إذ كانت عليه أعلام شغلت قلبه افتري أن ذلك يدل على تحريم الأعلام على الثوب؟ فلعله ﷺ كان في حالة كانت صوت زمارة الراعي يشغله عن تلك الحالة كما شغله العلم في الصلاة. بل الحاجة إلى استثارة الأحوال الشريفة من القلب بحيلة السماع قصور بالإضافة إلى من هو دائم الشهود للحق، وإن كان كاملا بالإضافة إلى غيره^(١).

هذه الوقائع التي ذكرناها من هدى الصحابة كافية في الاستئناس والاستقواء بهذا التوجه منهم، وهم خير قرون الأمة، وأفضل أجيالها على الإطلاق. وليس من السهل الطعن في هذه الوقائع جميعها، وما صح منها كان فيما نحن بصدده.

* * *

(١) الإحياء ج ٢ / ٢٨٦ ط دار المعرفة.

الذين أجازوا الغناء وسمعوه من التابعين

(وقال) أبو طالب المكي رحمه الله تعالى: «قد فعل ذلك كثير من السلف الصالح» كما تقدم بيانه، (وتابعى بإحسان).

سعيد بن المسيب:

وحسبك منهم سعيد بن المسيب وبه يضرب المثل فى الورع، وهو أفضل التابعين بعد أويس، وبعضهم اعتبره سيد التابعين بإطلاق، وهو أحد الفقهاء السبعة، وقد سمع الغناء واستلذ سماعه.

قال ابن عبد البر: ذكر وكيع عن محمد بن خلف قال: حدثنى عبد الله بن أبى سعيد، حدثنى الحسن بن على بن منصور، أخبرنى أبو غياث عن إبراهيم بن محمد العباس المطلبى أن سعيد بن المسيب مر فى بعض أزقة مكة، فسمع الأخضر يغنى فى دار العاص بن وائل وهو يقول:

تضوع مسكا بطن نعمان إذ مشت به زينب فى نسوة خفرات

فضرب سعيد برجله فقال: هذا والله مما يلذ استماعه ثم قال سعيد:

وليست كأخرى أوسعت جيب درعها وأبدت بنان الكف فى الجمرات

وعلت بنان المسك وصفا مرجلا على مثل بدر لاح فى ظلمات

وفاضت ترائى يوم جمع فأفتنت برؤيتها من راح من عسرفات

قال: وكانوا يروون هذا الشعر لسعيد بن المسيب. قال ابن عبد البر: وليس

هذا من شعر النميرى، رويناه وليس فيه هذه الأبيات، فهى لسعيد، والنميرى هو

محمد بن عبد الله من بنى ثقيف وليس من بنى نمير، وهذا شعره فى زينب أخت

الحجاج، وساق هذه الحكاية أيضا ابن الجوزى فى (تلبيس إبليس)، والطبرانى

وابن السمعانى فى أوائل الذيل.

سالم بن عبد الله :

وأما سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب فذكر الحافظ أبو الفضل محمد ابن طاهر: بسنده إلى عبد العزيز بن عبد اللطيف قال حدثني أبي قال: دخلت على سالم بن عبد الله بن عمر، وأشعب يغنيه بهذا الشعر:

مغيرة كالبدر سنة وجهها مطهرة الأثواب والعرض وافر
لها حسب زاك وعرض مهذب وعن كل مكروه من الأمر زاجر
من الخفرات البيض لم تلق ريبة ولم يستملها عن تقى الله شاعر
فقال له سالم: زدني، فقال:

ألمت بنا والليل داج كأنه جناح غراب عنه قد نفض القطرا
فقلت: أعطار ثوى فى رحالنا؟ وما احتملت ليلى سوى ريحها عطرا
فقال سالم: أما والله لولا أن تداوله الرواة لأجزلت جائزتك، فلك من هذا الأمر مكان، انتهى، وساقه ابن السمعانى فى أوائل الذيل بأسانيده، وعبد العزيز ابن عبد المطلب هذا هو قاضى المدينة، وقيل قاضى مكة.

خارجة بن زيد :

وأما خارجة بن زيد بن ثابت، فهو أحد الفقهاء السبعة، وقد ذكرنا من قبل ما رواه صاحب الأغانى بسنده إلى خارجة بن زيد قال: دعينا إلى مأدبة فحضرنا وحضر حسان بن ثابت، وهو عم خارجة، وكان قد ذهب بصره، ومعه ابنه عبد الرحمن، فجلسنا جميعا على مأدبة، فلما فرغ الطعام أتونا بجاريتين مغنيتين إحداهما: ربيعة، والأخرى: عزة الميلاء، فجلسنا وأخذتا بمزهرهما وضربتا ضربا عجيبا وغنتا بشعر حسان:

فلا زال قصر بين بصرى وجلق عليه من الوسمى جود ووابل

إلى آخر القصة التى ذكرها أيضا صاحب التذكرة الحمدونية، والمبرد فى

الكامل، وابن المرزبان . فهذا خارجة وابن عمه عبد الرحمن بن حسان يشاركان في السماع مع حسان رضى الله عنه .

القاضى شريح :

وأما القاضى شريح فنقل عنه الأستاذ أبو منصور البغدادي في مؤلفه في السماع أنه كان يصوغ الألحان ويسمعها من القيان مع جلالته وكبر شأنه .

سعيد بن جبير :

وأما سعيد بن جبير، فقال الحافظ محمد بن طاهر بسنده إلى الأصمعي، قال : حدثنا عمر بن زائدة، حدثتني امرأة عمرو بن الأصم قالت : مررنا ونحن جوار بسعيد بن جبير ومعنا جارية تغنى ومعها دف، وهي تقول :

لكن فتننتني فهى بالأمس أفتنت سعيدا فأضحى قد قلى كل مسلم
وألقى مفاتيح القراءه واشترى وصال الغواني بالكتاب المنمنم

فقال سعيد : تكذابين، تكذابين! ورواه أيضا الفاكهي في تاريخ مكة، وابن السمعاني في أوائل الذيل، وهى فى الأصمعيات، فقد سمع سعيد الغناء بالدف، ولم ينكر عليها فعلها، ولما ذكرت ما لم يكن، أنكر عليها القول، ولم ينكر الفعل، مع زهده وتقشفه ومبادرته إلى إنكار ما ينكر .

عامر الشعبي :

وأما الشعبي فهو من أكابر التابعين علما وعملا، فقد حكى عنه الأستاذ أبو منصور : أنه يقسم الأصوات إلى الثقيل الأول . وإلى الثقيل الثانى . وما بعدهما من المراتب . وقال الحافظ محمد بن طاهر فى كتابه (صفوة التصوف) : قال الأصمعي : حدثنا عمرو بن أبى زائدة قال : مر الشعبي بجارية تغنى : فتن الشعبي لما . . . فلما رأته الشعبي سكتت .

فقال الشعبي قولى : رفع الطرف إليها .

وهو فى الأصمعيات . وساقه ابن السمعاني فى أوائل الذيل بأسانيده .

ابن أبي عتيق :

وأما عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر المعروف بابن أبي عتيق، فقال الأستاذ أبو منصور: كان فقيها ناسكا يغنى ويعلم القينات الغناء، وقال الزبير بن بكار في الموفقيات: حدثنا طيبة مولاة فاطمة بنت عمر بن مصعب بن الزبير، عن أم سليمان بنت نافع: أن ابن أبي عتيق دخل على جارية بالمدينة فسمعها تغنى لابن سريج:

ذكر القلب ذكره أم زيد والمطايا بالشهب شهب الركاب
وبنعمان طاف منها خيال يا لقومي من طيفها المنتاب
عللته وقربته بوعد ذاك منها إلى مشيب الغراب
بت في نعمه وبات وسادى بين كف حديثة بخضاب

فسألها ابن أبي عتيق أن تعيده، فأبت، فخرج من عندها وركب نجيبا، فقدم مكة، وأخذ ابن سريج وأدخله حماما وهياها، ثم جاء به إليها وقال: هذا يغنى أحب أن تسمعني منه وتسمعيه. قالت: نعم، فأمر بالغناء فغنى أبياتا ذكرها الزبير، فسألته أن يعيدها، فقال له ابن أبي عتيق: خذ نعليك. أتعرفين ابن سريج؟ وساق صاحب الأغاني منه جملة.

وبالجملة فسماع ابن أبي عتيق كثير مشهور لا يختلف فيه أهل الأخبار مروى بأسانيد جياد، وكان كثير البسط والخلاعة^(١) مع عفة ونسك وزهد وعبادة، وأخرج له الشيخان في الصحيحين.

عطاء بن أبي رباح :

وأما عطاء بن أبي رباح فهو من أكابر التابعين، وهو مع علمه وزهده وورعه وعبادته ومعرفته بالسنن والآثار، فقد قال الأستاذ أبو منصور: إنه كان يقسم الأصوات إلى الثقيل الأول وإلى الثقيل الثاني وما بعدهما من المراتب.

(١) لا يقصد بالخلاعة ما هو شائع اليوم من الميل إلى الفسق والفجور، وإنما يقصد بها التبسط في اللهو، والتوسع في رفاهية العيش.

وقال البيهقي بسنده إلى ابن جريج قال : سألت عطاء عن الغناء بالشعر، فقال : لا أرى به بأسا ما لم يكن فحشا . وروى ابن قتيبة بسنده إلى إبراهيم الخزومي قال : أرسلني أبي إلى عطاء بن أبي رباح أسأله عن مسألة فأتيته فوجدته في دار العقبي وعليه ملحفة معصفرة . فقالوا له : يا أبا محمد لو أذنت لنا أرسلنا إلى العريض ، وابن سريج فقال : افعلا ما شئتم . . فبعثوا إليهما فحضرا وغنيا وعطاء يسمعهما ، حتى إذا مالت الشمس قام إلى منزله .

قال ابن قتيبة : واختلف عند محمد بن إبراهيم في الغناء فبعث إلى ابن جريج وإلى عمرو بن عبيدة فأتياه فسألهما ، فقال ابن جريج : لا بأس به ؛ جئت عطاء بن أبي رباح وقد ختن ولده وعنده الأجر يغني ، فكان إذا سكت لا يقول له : غن ، وإذا غنى لا يقول له : أسكت . وإذا لحن رد عليه ، فقال عمرو بن عبيد : فأيهما يكتب الغناء . الذي على اليمين أو الذي على الشمال ؟ فقال ابن جريج : لا يكتبه واحد منهما^(١) .

وقال ابن عبد البر بسنده إلى جريج قال : سألت عطاء عن الحداء والشعر والغناء . فقال : لا بأس به ما لم يكن فحشا .

وقال محمد بن إسحاق الفاكهي في تاريخ مكة : حدثني عبد الله بن أحمد ، حدثنا خلف بن سالم مولى ابن صيفي ، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الحميد الخزومي ، عن عمه عيسى بن عبد الحميد قال : ختن عطاء ولده فدعانا في وليمة في دار الأخنس ، فلما فرغ الناس جلس عطاء على المنبر يقسم بقية الطعام ، ودعا الفتيان العريض وابن سريج فجعلتا يغنيان ، فقالوا لعطاء : أيهم أحسن غناء ؟ فقال : يغنيان حتى أسمع ، فأعادا واستمع ، فقال : أحسنهما الرقيق الصوت يعني ابن سريج .

(١) المراد بالذي على اليمين : الملك الذي يكتب الحسنات ، والذي على الشمال : الملك الذي يكتب السيئات . وقوله : لا يكتبه واحد منهما ، يعني : أنه لا يحسب في الحسنات ولا في السيئات ، إنما هو من المباح . ولكن من المعلوم : أن المباح إذا فعل يقصد التقرب إلى الله تعالى ، انتقل إلى القرب والطاعات بالنية الصالحة .

وأما الزهرى فنقله عنه الأستاذ أبو منصور.

عمر بن عبد العزيز :

وأما عمر بن عبد العزيز، فقال ابن قتيبة . سئل إسحاق عنه . فقال : ما طن فى أذنه شىء بعد أن أفضت إليه الخلافة، وأما قبلها وهو أمير، فكان يسمع من جواريه خاصة، ولا يظهر منه إلا الجميل، وكان ربما صفق بيديه، وتمرغ على فراشة طريا، وضرب برجليه .

وقال الزبير بن بكار فى الموفقيات : أخبرنى عمى قال : أدركت الناس بالمدينة يغنون لحنا وينسبونه إلى عمر بن عبد العزيز، وهو :

كأن قد شهدت الناس يوم تقسمت خلائقهم فاخترن منهن أربعا
إعارة سمع كل مغتاب صاحب ويأتى بعيب الناس إلا تتبعا
وأعجب من هاتين أنك تدعى السد سلامة من عيب الخليقة أجمعا
وإنك لو حاولت فعل إساءة فكوفيت إحسانا جحدتهم معا
سعد بن إبراهيم :

وأما سعد بن إبراهيم، فحكاه عنه ابن حزم، وابن قدامه الحنبلى وغيرهما، فهؤلاء جملة من التابعين

من أجاز الغناء وسمعه بعد التابعين :

وأما من بعد التابعين :

ابن جريج :

فمنهم عبد الملك ابن جريج، وهو من العلماء الحفاظ والفقهاء العباد، المجمع على جلالتة وعدالتة، وكان يستمع الغناء ويعرف الألحان، حكى عنه الأستاذ أبو منصور : أنه كان يصوغ الألحان ويميز بين البسيط والنشيد والخفيف .

وقال ابن قتيبة : حكى عن ابن جريج أنه كان يروح إلى الجمعة فيمر على

مغن فيولج عليه الباب، فيخرج فيجلس معه على الطريق، ويقول له: غن، فيغنيه أصواتا فتسيل دموعه على لحيته، ثم يقول: إن من الغناء ما يذكر الجنة.

وقال صاحب التذكرة الحمدونية، قال داود المكي: كنا في حلقة ابن جريج وهو يحدثنا وعنده جماعة منهم عبد الله بن المبارك وجماعة من العراقيين، إذ مر به مغن فقال له: أحب أن تسمعني، فقال له: إنني مستعجل فألح عليه فغناه، فقال له: أحسنت أحسنت ثلاث مرات، ثم التفت إلينا فقال: لعلكم أنكرتم، فقالوا: إنا ننكره بالعراق، فقال: ما تقولون في الرجز يعني الحداء؟ قالوا: لا بأس به. قال: أي فرق بينه وبين الغناء!

وأما محمد بن علي بن أبي طالب، فقال ابن قتيبة: أنه سئل عن الغناء. فقال: ما أحب أن أمضى إليه ولو دخل علي ما خرجت منه ولو كان في موضع لي فيه حاجة ما امتنعت من الدخول.

وأما إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف فقد تقدم عنه قريبا.

وأما ابن مجاهد فسيأتي قريبا.

ابن سيرين:

وروى ابن أبي شيبة عن ابن عون. قال: كان في آل محمد (يعني: ابن سيرين) ملاك (أي زواج) فلما أن فرغوا ورجع محمد إلى منزله قال لهن (أي للنساء): أين طعامكن؟ قال ابن عون: يعني: الدف^(١).

كأنه اعتبر الدف للنساء كالطعام، لشدة تعلقهن به.

وسنذكر هنا رأي بعض الأئمة ممن حازوا بعد التابعين تكملة للبحث.

عبيد الله بن الحسن:

وأما عبيد الله بن الحسن العنبري قاضي البصرة، فكان من العلم والورع بمكان، وكان من مذهبه إباحة الغناء. اتفقت النقلة على ذلك، ونصب الفقهاء

(١) المصنف لابن أبي شيبة ج ٤ / ١٩٣.

الخلاف عنه فيه، ومن حكاه عنه زكريا بن يحيى الساجي في كتابه في الخلاف،
وأبو بكر بن المنذر في الإشراف، والقاضي أبو الطيب وغيرهم.

الإمام أبو حنيفة:

وأما الإمام أبو حنيفة، فحكى صاحب (التذكرة الحمدونية) أنه سئل هو
وسفيان الثوري عن الغناء، فقالا: ليس من الكبائر، ولا من أسوأ الصغائر.

وحكى ابن عبد ربه في العقد أيضا عن أبي حنيفة.. وذكر قصة جارة التي
سندكرها بعد، وذكر عن أبي يوسف أيضا أنه كان يحضر مجلس الرشيد وفيه
الغناء، وقال الحافظ في رسالته: وأما أبو حنيفة فحدثنا أصحابنا عنه، منهم من
حدث عن حفص بن غياث، ومنهم من حدث عن محمد بن الحسن عن أبي
يوسف قال: ذكر عند أبي حنيفة الغناء فقال: أما أنا فوددت أن لي غريما لأزمني،
وحلف علي فأدخلني إلى موضع فيه سماع فأسمع.

وذكر ابن قتيبة أنه ذكر عند أبي يوسف الغناء، فذكر قصة جار أبي حنيفة
التي نذكرها وهي ما حكاه ابن قتيبة وغيره عنه أنه كان له جار وكان كل ليلة
يغني:

أضاعوني وأى فتى أضاعوا ليوم كرية وسداد ثغرا!

وكان أبو حنيفة يسمع إليه، وأنه فقد صوته، فسأل عنه ف قيل له: إنه وجد
في الليل وسجن في سجن الأمير عيسى، فلبس عمامته، وتوجه إلى الأمير،
وتحدث معه، فقال: هل تعرف ما أسمه. فقال أبو حنيفة: اسمه عمرو، فقال
الأمير: يطلق كل من اسمه عمرو، فأطلق الرجل، فلما خرج قال له أبو حنيفة:
أضعناك؟ فقال: بل حفظت.

وتمام هذا أنه قال له: فصر إلي ما كنت عليه، وقد ضمن ذلك في قصيدته
أبو عمر يوسف بن هارون الكندي المعروف بالرمادي، على ما أورده الحافظ أبو
محمد عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي صاحب كتاب (المعجب في أخبار

أهل المغرب) والقصيدة فيها أنه كان يسمع صوته بالغناء حتى أفتقده ليلة، أو أكثر، فعرف أنه سجن، فذهب إلى الأمير ليشفع فيه.

ويم جاره عيسى بن موسى فلاقاه بإكرام وبشـر
فقال: سجت لى جارا يسمى بعمر، قال: يطلق كل عمرو

فقد تضمنت هذه الحكاية والقصيدة أنه كان يسمع إليه ولم ينهه عن الغناء، فدل على إباحته عنده، فإن استماعه كل ليلة - مع ورعه وزهده - ينبغي أن يحمل على الإباحة، وما ورد عنه بخلافه يحمل على الغناء المقترن بشيء من الفحش ونحوه، جمعا بين القول والفعل، على أن التحريم أخذ من مقتضى قوله لا من نصه فيما علمت، ورأيت فى كتبهم، ولا دلالة فيما أخذ منه لاحتماله وجوها. هذا لفظ الكمال الأذفوى فى (الإمتاع).

قلت: وذكر صاحب الهداية فى باب الشهادة: ولا تقبل شهادة نائحة ولا مغنية، وهذا أيضاً لفظ القدورى، فأطلق ثم قال: ولا من يغنى للناس، فورد أنه تكرار يعلم ذلك من قوله مغنية.

قال الشيخ ابن الهمام فى فتح القدير: إن الوجه أن اسم مغنية ومغن إنما هو فى العرف لمن كان الغناء حرفته التى يكتسب بها المال، فاللفظ المذكور هنا. غير أنه خص المؤنث به ليوافق لفظ الحديث «لعن الله النائحات لعن الله المغنيات» ومعلوم أن ذلك الوصف للتغنى لا لوصف الأنوثة، ولا للتغنى مع الأنوثة، لأن الحكم المرتب على مشتق إنما يفيد أن وصف الاشتقاق هو العلة فقط لا مع زيادة أخرى. نعم هو من المرأة أفحش لرفع صوتها وهو حرام، ونصوا على أن المغنى للهو أو لجمع المال حرام بلا خلاف، ثم قال: وفى التغنى لإسماع نفسه ولدفع الوحشة خلاف بين المشايخ: منهم من قال: إنما يكره ما كان على سبيل اللهو احتجاجا بما روى عن أنس بن مالك أنه دخل على أخيه البراء بن مالك، وكان من زهاد الصحابة وكان يتغنى، وبه أخذ شمس الأئمة السرخسى، ومنهم من قال: يكره جميع ذلك وبه أخذ شيخ الإسلام، ويحمل حديث البراء بن مالك أنه كان

ينشد الأشعار المباحة من الأشعار مما لا بأس به، ومن المباح أن تكون فيه صفة امرأة بخلاف ما إذا كانت بعينها حية، فقد عرف أن التغنى المحرم هو ما كان فى اللفظ ما لا يكون يحل كصفة المذكر والمرأة المعينة الحية ووصف الحية ووصف الخمر المهيج إليها، والهجاء لمسلم أو ذمى إذا أراد المتكلم به هجاءه إلا إذا أراد الشعر للاستشهاد به أو لتعلم فصاحته. نعم إذا قيل ذلك على الملاحى امتنع، وإن كان مواعظ وحكما للآلات نفسها لا لذلك التغنى، وفى المعنى: الرجل الصالح إذا تغنى بشعر فيه فحش لا تبطل عدالته، وفى معنى ابن قدامة الملاحى نوعان: محرم وهو الآلات المطربة ومباح وهو الدف فى النكاح، وفى معناه ما كان من حادث سرور ويكره غيره، وفى الأجناس. وسئل محمد بن شجاع عن الذى يترنم مع نفسه، قال: لا يقدر فى شهادته أهـ. كلام ابن الهمام.

الإمام مالك:

ثم قال الأذفوى: وأما الإمام مالك رحمه الله تعالى؛ فقد ذكرنا فى قصة إبراهيم بن سعد ما وقع من مالك، يعنى أن الرشيد سأله: هل بلغك عن مالك بن أنس فى ذلك شىء؟ فقال: لا والله إلا أن أبى أخبرنى أنهم اجتمعوا فى مدعاة كانت فى بنى يربوع، وهم يومئذ جلة، ومالك أقلهم من فقه وقدر، معهم دفوف وعيدان يغنون بها ويلعبون، ومع مالك دف مربع وهو يغنيهم:

سليمى أزمعت بينا وأين لقاؤها أينا؟

إلى آخر القصة.

وقد حكى صاحب الأغانى والتذكرة الحمدونية أنه سمع من يغنى شيئاً على غير الصواب، فسأله ذلك الشخص أن يخبره بالصواب، فأخرج رأسه من كوة وغناه على الصواب، فسأله أن يعيده، فقال: حتى تقول: أخذته عن مالك ابن أنس؟

وحكى الإباحة عنه أبو القاسم القشيرى، والأستاذ أبو منصور، والقفال

وغيرهم.

وسألت جماعة من فضلاء المالكية: هل له نص في تحريم الغناء؟ فقالوا: لا. وإنما أخذ من قوله: إنه لا يصح بيع الجارية المغنية على أنها مغنية، ومن نصه في الجارية: أنه إذا وجدها مغنية كان له الرد، وهذا لا يدل على التحريم، فإنه يجوز أن يكون عنده حلالاً ويمتنع البيع لأمر آخر، إما لكونه غير منضبط، وأنه لا يقابل بالعضوية شرعاً، كما أن عسيب الفحل جائز، ولا يصح العقد عليه بيع ولا إجارة.

وقد ذكر القاضى عياض فى (التنبيهات) منع إجازة الدف مع القول بإباحته، وقال: ما كل مباح يجوز العقد عليه، وأما الرد بالعيب، فقد حكى ابن رشد عنه فى المقدمات فى رواية زيادة عنه أنه فرق بين أمة التسرى وأمة الخدمة، فإن أمة التسرى يعاير بها الولد، واختاره ابن رشد، وقطع ابن المواز بعدم الرد. وقال صاحب البحر: إن مالكا يرد الجارية بالغناء ولا يرد العبد. قال: لأن الغناء يدل على قلة صيانتها، ولو كان الغناء حراماً لرد العبد أيضاً. ثم بتقدير تسليم ذلك كله يدل على تحريم غناء النساء خاصة لا لأجل أن الغناء نفسه حرام، وإنما هو لأجل أن الغناء من النساء يدعو إلى الفساد، ولذلك صرح ابن العربي المالكي بأنه يجوز للرجل سماع جاريته. وبالجملة: فإذا لم يكن له نص فى المسألة فما استنبطوه غير متجه إذ هو محتمل، وما نقل عنه بالإسناد أنه سئل عنه فقال: إنما يسمعه الفساق محتمل، وأنه لا يجوز: محمول على غناء يقترن به منكر ونحوه، جمعاً بين النقول التى قدمناها التى هى صريحة، وأيضاً فقولته: إنما يسمعه الفساق محتمل أن الذين نعهدهم أو نعرفهم يسمعون عندنا وصفهم كذا، فلا يدل أنه أراد التحريم، كما إذا قالت: ما قولك فى المتفرجين فى البحر؟ فتقول: إنما يفعل عندنا أهل اللعب وأهل الفساد، فلا دلالة على تحريم فرجة البحر، وقد قال ابن العربي: إن علماءنا بجملتهم قالوا: إذا وقع البيع فسخ. قال: ولو كان حراماً لم يقولوا فسخ^(١).

(١) انظر: الإتحاف ج ٧/ ٥٦٨ - ٥٧٥.

الإمام الشافعي :

وأما الإمام الشافعي رحمه الله تعالى، فقد قال الغزالي في (الإحياء) : ليس تحريم الغناء من مذهبه أصلا . وقد نص الشافعي وقال في الرجل يتخذ صناعة : لا تجوز شهادته . وذلك لأنه من اللهو المكروه الذي يشبه الباطل، ومن اتخذه صنعة كان منسوبا إلى السفاهة وسقوط المروءة، وإن لم يكن محرما بين التحريم . فإن كان لا ينسب نفسه إلى الغناء ولا يؤتى لذلك ولا يأتي لأجله، وإنما يعرف بأنه قد يظرب في الحال فيترنم بها، لم يسقط هذا مروءته، ولم يبطل شهادته . واستدل بحديث الجاريتين اللتين كانتا تغنيان في بيت عائشة رضي الله عنها .

وقال يونس بن عبد الأعلى : سألت الشافعي رحمه الله عن إباحة أهل المدينة للسمع، فقال الشافعي : لا أعلم أحدا من علماء الحجاز كره السماع، إلا ما كان منه في الأوصاف، فأما الحداء وذكر الأطلال والمرباع، وتحسين الصوت بألحان الأشعار، فمباح .

وحيث قال : إنه لهو مكروه يشبه الباطل، فقوله « لهو » صحيح . ولكن اللهو - من حيث إنه لهو - ليس بحرام، فلعب الحبشة ورقصهم لهو . وقد كان صَلَّى ينظر إليه ولا يكرهه . بل اللهو واللغو لا يؤخذ الله تعالى به . إن عني به أنه فعل ما لا فائدة فيه . فإن الإنسان لو وظف على نفسه أن يضع يده على رأسه في اليوم مائة مرة، فهذا عبث لا فائدة له ولا يحرم . قال الله تعالى : ﴿ لَا يَأْخُذُكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ [سورة البقرة: ٢٢٥] فإذا كان ذكر اسم الله تعالى على الشيء على طريق القسم من غير عقد عليه ولا تصميم والمخالفة فيه - مع أنه لا فائدة فيه - لا يؤخذ به، فكيف يؤخذ بالشعر والرقص؟ وأما قوله « يشبه الباطل » فهذا لا يدل على اعتقاد تحريمه، بل لو قال : هو باطل صريحا . لما دل على التحريم، وإنما يدل على خلوه عن الفائدة، فالباطل ما لا فائدة فيه . فقول الرجل لامرأته مثلا : بعثت نفسي منك، وقولها : اشتريت : عقد باطل، مهما كان القصد اللعب والمطايبة، وليس بحرام، إلا إذا قصد به التملك المحقق منع الشرع منه .

وأما قوله «مكروه» فينزل على بعض المواضع التي ذكرتها لك أو ينزل على التنزيه، فإنه نص على إباحة لعب الشطرنج، وذكر: أنى أكره لعبه، وتعليه يدل عليه، فإنه قال: ليس ذلك من عادة ذوى الدين والمروءة. فهذا يدل على التنزيه. ورده الشهادة بالمواظبة عليه، لا يدل على تحريمه أيضا، بل قد ترد الشهادة بالأكل فى السوق وما يخرم المروءة، بل الحياكة مباحة، وليست من صنائع ذوى المروءة، وقد ترد شهادة المحترف بالحرفة الخسيسية، فتعليه يدل على أنه أراد بالكراهة التنزيه. وهذا هو الظن بغيره من كبار الأئمة. وإن أرادوا التحريم فما ذكرناه حجة عليهم^(١).

الإمام أحمد:

وأما الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى، فقال أبو الوفاء بن عقيل فى كتابه المسمى بالفصول: صحت الرواية عن أحمد أنه سمع الغناء عن ابنه صالح، وقد قال أبو حامد: إن فعله يضاف إليه مذهباً يكون كالقول، وحكاه عن جماعة الأصحاب، وقد كان أبو بكر الخلال وصاحبه عبد العزيز يحملان الكراهة من أحمد على غناء يقتترن به ما يقتضى الكراهة، وقال شارح المقفى: روى عن أحمد أنه سمع عند ابنه صالح قوالاً فلم ينكره، فقال له ابنه: يا أبت أأست كنت تنكره أو تكرهه؟ فقال: قيل لى إنهم يستعملون المنكر معه. وما استنبطه ابن الجوزى غير متجه، وأما منع بيع الجارية المغنية فتقدم الكلام عليه عند ذكر مالك، وأما أخذه ذلك من كسب الخنث على تقدير تسليم أن كسبه بالغناء، فلا يدل، لأن أكثر من قال بإباحة الغناء أطلق القول بمنع أخذ الأجرة، وقد يجوز الشيء ويمتنع مقابله بالعوضىة لمعنى آخر، وكيف يصح استنباط ذلك من مقتضى قوله وفعله يخالفه، وقد علل هو المنع بأنه كان يقول إنه يقتترن به منكر. وقول ابن الجوزى إنه يحمل فعله وقوله على ما كان يغنى به فى زمنه من القصائد الزهديات: كلام عجيب، فإن الكلام فى التحريم والإباحة للغناء نفسه لا

(١) الإحياء ج ٢ / ٢٨٤.

ما يقترن به، وكون الشعر الذى يغنى به مما لا يجوز: ليس موضع النزاع، فإنه يكون تحريمه لعارض، ولا نعلم أحدا قال بجواز الغناء بالقصائد الزهديات دون غيرها، وابن الجوزى غلب عليه الوعظ والرواية، والفقهاء الغواص له مرتبة أخرى^(١).

إسحاق الموصلى:

ومن اشتهر بإجازة الغناء بالآلات، وممارسته صناعة وتفوق فيه، وانعقدت له الإمامة فى شأنه: إسحاق بن إبراهيم الموصلى، أحد الإعلام فى الحضارة الإسلامية.

ترجم له الحافظ الذهبى فى (سير الأعلام) فقال: الإمام الحافظ العلامة ذو الفنون، أبو محمد إسحاق بن إبراهيم بن ميمون، التميمى الموصلى الأخبارى، صاحب الموسيقى، والشعر الرائق، والتصانيف الأدبية، مع الفقه واللغة، وأيام الناس، والبصر بالحديث، وعلو المرتبة.

وبعد أن تحدث عن شيوخه وتلاميذه، وبعض وقائع حياته، وثناء العلماء عليه. قال: إنه كان يكره أن ينسب إلى الغناء، ويقول: لأن أضرب على رأسى بالمقارع، أحب إلى من أن يقال عنى: مغن.

وقال المأمون: لولا شهرة إسحاق بالغناء لوليته القضاء^(٢).

وذكر الخطيب البغدادي بسنده قال:

قال إسحاق ليحيى بن خالد (الوزير البرمكى) أريد أن تكلم لى سفيان بن عينية، ليحدثنى أحاديث، فقال: نعم، رذا جاءنا فأذكرنى، قال فجاءه سفيان بن عيينة، فلما جلس أوامأت إلى يحيى فقال له: يا أبا محمد، إسحاق بن إبراهيم من أهل العلم والأدب، وهو مكره على ما تعلمه منه. فقال سفيان: ما تريد بهذا

(١) أرى فى هذا ظلما لابن الجوزى رحمه الله، فقد كان رجلا موسوعيا، وكان فقيها أيضا، ومع هذا، فليس الفقيه معصوما!.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء ترجمة ٤٢ (١١/١١٨ - ١٢١).

الكلام؟ فقال: تحدّثه بأحاديث، قال فتكره ذلك. فقال يحيى: أقسمت عليك إلا ما فعلت. قال نعم، فليبكر إلي، قال، فقلت ليحيى: افرض لى عليه شيئا، فقال له: يا أبا محمد، افرض له شيئا، قال: نعم، قد جعلت له خمسة أحاديث، قال زده. قال قد جعلتها سبعة. قال: هل لك أن تجعلها عشرة؟ قال: نعم، قال إسحاق: فبكرت إليه، وأستأذنت ودخلت، فجلست بين يديه، وأخرج كتابه، فأملى على عشرة أحاديث. فلما فرغ قلت له: يا أبا محمد، إن المحدث يسهو ويغفل، والمحدث أيضا كذلك، وقلت له أيضا: إن القارىء ربما أغفل طرفه الحرف، والمقروء عليه ربما ذهب عنه الحرف، فأنا فى حل أن أروى جميع ما سمعته منك؟ قال: نعم فديتك، أنت والله فوق أن تستشقع أو يشقع لك، فتعال كل يوم، فلوددت أن سائر أصحاب الحديث كانوا مثلك!

وروى الخطيب البغدادي بسنده عن إسحاق. قال: بقيت دهرا من دهري أغلس فى كل يوم إلى هشيم أو غيره من المحدثين فأسمع منه، ثم أصير إلى الكسائى أو الفراء، أو ابن غزالة، فأقرأ عليه جزءا من القرآن، ثم أتى إلى منصور زلزل فيضاربنى طريقين^(١) أو ثلاثة، ثم أتى عاتكة بنت شهدة، أخذ منها صوتا أو صوتين. ثم أتى الأصمعى وأبا عبيدة فأناشدهما وأحدثهما وأستفيد منهما. ثم أصير إلى أبى، فأعلمه ما صنعت، ومن لقيت، وما أخذت، وأتغدى معه. فإذا كان العشى رحمت إلى أمير المؤمنين الرشيد.

وقال الموصلى: لما خرجنا مع الرشيد إلى الرقة قال لى الأصمعى: كم حملت معك من كتب؟ قال: تخففت، فحملت ثمانية أحمال، ستة عشر صندوقا! قال: فعجب فقلت: كم معك يا أبا سعيد؟ قال: ما معى إلا صندوق واحد، قلت: ليس إلا؟ قال: وتستقل صندوقا من حق!

(١) فى سير أعلام النبلاء: ذكر المحقق فى الحاشية: أن الصواب (طريقين) على خلاف ما فى الأصل، والتصويب من (الأغانى): ٥/ ٢٧٢ والطرق - بالفتح - صوت أو نغمة بالعودة ونحوه. (١١/ ١٢٠) سير الأعلام.

وذكر الخطيب البغدادي بسنده عن ابن محمد الكندي أن محمد بن عطية العطوي الشاعر حدثه أنه: كان عند يحيى بن أكثم في مجلس له يجتمع الناس فيه، فوافى إسحاق بن إبراهيم الموصلي، فأخذ يناظر أهل الكلام حتى انتصف منهم، ثم تكلم في الفقه فأحسن، وقاس واحتج، وتكلم في الشعر واللغة، ففاق من حضر، فأقبل علي يحيى فقال: أعز الله القاضي، أفي شيء مما ناظرت فيه وحكيته نقص أو مطعن؟ قال: لا. قال فما بالي أقوم بسائر هذه العلوم قيام أهلها وأنسب إلي فن واحد قد اقتصر الناس عليه (يقصد: فن الغناء والموسيقى) قال العطوي «فالتفت إلي يحيى بن أكثم فقال: جوابه في هذا عليك. قال: وكان العطوي من أهل الجدل. فقلت: نعم أعز الله القاضي، الجواب علي. ثم أقبلت علي إسحاق فقلت: يا أبا محمد أنت كالفراء والأخفش في النحو؟ قال: لا. قلت: أفأنت في اللغة وعلم الشعر كالأصمعي وأبي عبيدة؟ قال: لا. قلت: أفأنت في الأنساب كالكلبي وأبي اليقظان؟ قال: لا. قلت: أفأنت في الكلام كأبي الهذيل والنظام؟ قال: لا. قلت: أفأنت في الفقه كالقاضي؟ قال: لا. قلت: أفأنت في قول الشعر كأبي العتاهية وأبي نواس؟ قال: لا. قلت: فمن ها هنا نسبت إلي ما نسبت إليه؛ لأنه لا نظير لك فيه ولا شبيه وأنت في غيره دون رؤساء أهله، فضحك وقام فانصرف، فقال لي يحيى بن أكثم: لقد وفيت الحجة حقها، وفيها ظلم قليل لإسحاق. وإنه لمن يقل في الزمان نظيره^(١).

سفيان بن عيينة:

وأما سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى، فحكى عنه تلميذه الزبير بن بكار في الموفقيات أنه لما قدم ابن جامع مكة بمال جم قال سفيان لأصحابه: علام يعطى ابن جامع هذه الأموال؟ قالوا: علي الغناء. قال: ما يقول فيه؟ قال يقول:
أطوف بالبيت مع من يطوف وأرفع من مئزرى المسبل

(١) انظر: ترجمة إسحاق الموصلي في تاريخ بغداد (٦/٣٣٨ - ٣٤٥) الترجمة رقم

قال : هى السنة، ثم ماذا؟ قالوا: يقول :

وأسجد بالليل حتى الصباح وأتلو من المحكم المنزل

قال : أحسن وأصلح، ثم ماذا؟ قالوا: يقول :

عسى فارح الهم عن يوسف يسخر لى ربة المحمل

قال : أفسد الخبيث ما أصلح لا سخرها الله تعالى له، وهكذا ساقه الماوردى فى الحاوى، وساقه أيضا المبرد فى الكامل إلا أنه قال : لما سمع البيت الثالث أشار بالسكوت وقال : حللا حللا وهذا من سفيان صريح فى الجواز. ألا ترى أنه استحسن أولا. وإنما أنكر آخر لما اقترن به من ذكر ربة المحمل فى طوافه.

وأما عبد العزيز بن المطلب القاضى، فأخرج له مسلم فى صحيحه والترمذى وغيرهما واستشهد به البخارى فى الصحيح، وقد قدمنا أنه كان يغنى وما غنى به فى ترجمة سالم بن عبد الله بن عمر. قال الزبيدى فى شرح الإحياء :

ثم ذكر الأذفوى جماعة من المتأخرين ممن كان يجوز السماع كالقاضى أبى بكر الباقلانى، وأبى عبد الله بن مجاهد، وأبى على الثقفى، وأبى بكر بن إسحاق، وأبى نصر السندى، والحاكم أبى عبد الله، والشيخ تاج الدين الفزارى، والعز بن عبد السلام، وابن دقيق العيد. وأطال فى النقول عنهم، ورأيت إن نقلت ذلك برمته طال الكتاب، وسيأتى ذكر كلام بعضهم فى أثناء السياق، بحسب المناسبة^(١).

والطعن فى هذه النقول كلها لا يجدى الحرّمين، فبعض هذه النقول لا يمكن الطعن فيه، وقد نقل هذه الأقوال الثقات، كما نقلنا ذلك من قبل عن الشوكانى، الذى حكاه عن كبار علماء الأمة من مختلف المذاهب والمدارس، والله الحمد والمنة.

* * *

(١) الإتحاف ج ٧/٥٧٥، ٥٧٦.

٤ - الرجوع إلى مقاصد الشريعة

وبما استدل به القائلون بإجازة الغناء والآلات: النظرة إلى مقاصد الشرع وأسراره، فمن المعلوم أن أحكام الشرع - وخصوصاً في شئون المعاملات والعاديات - مفهومة معللة، وهى أحكام منطقية تنشرح بها الصدور، وتقتنع بها العقول، كما قال البوصيرى فى مدح النبى ﷺ:

لم يمتحننا بما تعيا العقول به حرصاً علينا، فلم نرتب ولم نهم!

وذلك أن شارع هذا الذين من أسمائه الحسنى: الحكيم، ومن صفاته العلا: الحكمة. وتتجلى هذه الحكمة فى خلقه تعالى، كما تتجلى فى أمره سبحانه. فهو حكيم فيما خلق، حكيم فيما أمر، فلا يخلق شيئاً باطلاً، ولا يشرع شيئاً عبثاً.

وأى مسألة خرجت من الحكمة إلى العبث، أو من المصلحة إلى المفسدة، فليست من الشريعة فى شىء وإن أدخلت فيها بالتأويل، كما قال الإمام ابن القيم.

ومن هنا كان كل حكم فى الشريعة له حكمته وعلته، علمها من علمها وجهلها من جهلها.

حتى إن القرآن الكريم علل أحكام العبادات نفسها، فأمر بالصلاة لأنها ﴿ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] والزكاة ﴿ تَطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣] والصيام ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣] والحج ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ ﴾ [الحج: ٢٨].

ولكن قد يكون فى العبادات أمور لا تخضع للتعليل. امتحاننا من الله لعباده، كمواقيت الصلوات، وأعداد الركعات، وكون الركوع مرة والسجود مرتين، وكذلك ما يكون فى الحج من طواف وسعى ورمى جمار إلخ.

أما العاديات وأمور الحياة فإن التعليل فيها أوضح، ولهذا دخل فيها القياس عند جمهور الأئمة، كما دخل الاستحسان والاستصلاح عند المحققين من علمائها.

وقد قرر الإمام الشاطبي في (موافقاته) قاعدة مهمة، وهي أن الأصل في العبادات: التعبد والتزام النص دون النظر إلى المعاني والمقاصد وأن الأصل في العاديات والمعاملات هو النظر إلى المعاني والمقاصد والعلل، نظراً لاختلاف طبيعة كل منهما. وقد أقام الأدلة على هذا الفرق بينهما^(١).

وأوضح ما يكون ذلك في التحريم، فإن الله لم يحرم على هذه الأمة شيئاً طيباً، كما لم يحل لها شيئاً خبيثاً.

فقد حرم على بنى إسرائيل بعض الطيبات عقوبة منه سبحانه لهم على ظلمهم وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل.

فلما بعث الله محمداً ﷺ كان عنوان رسالته في كتب أهل الكتاب أنه ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ٥٧].

فلا حرام في الإسلام إذن إلا الخبيث الضار، سواء كان خبيثه أو ضرره مادياً أم معنوياً فردياً أم اجتماعياً، حالاً أم استقبالياً.

ولا شيء في الغناء إلا أنه من طيبات الدنيا التي تستلذها الأنفس، وتستطيبها العقول، وتستحسنها الفطر، وتشتهيها الأسماع، فهو لذة الأذن، كما أن الطعام الهنيء لذة المعدة، والمنظر الجميل لذة العين، والرائحة الذكية لذة الشم.. إلخ، فهل الطيبات - أي المستلذات - حرام أم حلال؟

من المعروف أن الله تعالى كان قد حرم على بنى إسرائيل بعض طيبات الدنيا

(١) انظر: الموافقات وانظر كتابنا (السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة

ومقاصدها).

عقوبة لهم على سوء ما صنعوا، كما قال تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا * وَأَخَذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١].

فلم يبق في الإسلام شيء طيب - أي تستطيبه الأنفس والعقول السليمة - إلا أحله الله، رحمة بهذه الأمة لعموم رسالتها وخلودها. قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ ﴾ [المائدة: ٤]. وهذه الكلمة (الطيبات) - بمعنى المستلذات - لفظ من ألفاظ العموم^(١)، يشمل كل ما تستلذه الأنفس من مطعوم ومشروب وملبوس ومشمووم ومرئى ومسموع، فكلها من طيبات أحلها الله.

ولم يبح الله لواحد من الناس أن يحرم على نفسه أو على غيره من الطيبات مما رزق الله مهما يكن صلاح نيته أو ابتغاء وجه الله فيه، فإن التحليل والتحرير من حق الله وحده، وليس من شأن عباده، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللهُ أذُنُكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٥٩]، وجعل سبحانه تحريم ما أحله من الطيبات كإحلال ما حرم من المنكرات، كلاهما يجلب سخط الله وعذابه، ويردى صاحبه في هاوية الخسران المبين، والضلال البعيد، قال جل شأنه ينعي على من فعل ذلك من أهل الجاهلية: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

(ب) ولو تأملنا لوجدنا حب الغناء والطرب للصوت الحسن يكاد يكون غريزة إنسانية وفطرة بشرية، حتى إننا لنشاهد الصبي الرضيع في مهده يسكته الصوت الطيب عن بكائه، وتنصرف نفسه عما يبكيه إلى الإصغاء إليه. ولذا تعودت الأمهات والمرضعات والمربيات الغناء للأطفال منذ زمن قديم. بل نقول: إن الطيور والبهائم تتأثر بحسن الصوت والنعيمات الموزونة حتى قال الغزالي في

(١) راجع ما قلناه عن (الطيبات) في أدلة المبيحين من القرآن الكريم.

الإحياء: (من لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن الاعتدال، بعيد عن الروحانية، زائد في غلظ الطبع وكثافته على الجمال والطيور وجميع البهائم، إذ الجمل مع بلادة طبعه يتأثر بالحذاء تأثراً يستخف معه الأحمال الثقيلة، ويستقصر - لقوة نشاطه في سماعه - المسافات الطويلة، وينبعث فيه من النشاط ما يسكره ويولفه. فترى الإبل إذا سمعت الحادى تمد أعناقها، وتصغى إليه ناصبة آذانها، وتسرع في سيرها، حتى تتزعزع عليها أحمالها ومحاملها) (١).

وإذا كان حب الغناء غريزة وفطرة فهل جاء الدين لمحاربة الغرائز والفطر والتنكيل بها؟ كلا، إنما جاء لتهدئتها والسمو بها، وتوجيهها التوجيه القويم. قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: أن الأنبياء قد بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها لا بتبديلها وتغييرها.

ومصدق ذلك أن رسول الله ﷺ قدم المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال: «ما هذان اليومان؟» قالوا كنا نلعب فيهما في الجاهلية. فقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله قد أبدلكم بهما خيراً منهما: يوم الأضحى ويوم الفطر» (٢).

نص حديث عائشة كما فى البخارى.

« رأيت النبى ﷺ يسترنى بردائه، وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون فى المسجد، حتى أكون أنا التى أسأم - أى اللعب - فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن، الحريضة على اللهو» (٣).

(١) الإحياء ج ٢ كتاب السماع.

(٢) رواه أبو داود (١١٣٤) والنسائى (١٥٥٥) عن أنس.

(٣) متفق عليه عن عائشة: رواه البخارى فى النكاح (٥٢٣٦) باب نظر المرأة إلى الحبش

وغيرهم من غير ربية. ومسلم فى صلاة العبدین (٨٩٢ - ١٨) باب الرخصة فى اللعب الذى لا معصية فيه أيام العيد. وقد أول الإمام النووى الحديث بأن عائشة كانت صغيرة دون البلوغ. ورد عليه بأن ذلك كان بعد قدوم وفد الحبشة، وإن قدومهم كان سنة سبع؛ ولعائشة يومئذ ست عشرة سنة.. انظر: الفتح ج ٩/ ٣٣٦، ٣٣٧ فى شرح الحديث المذكور.

وإذا كان الغناء لهوا ولعبا فليس اللهو واللعب حراما، فالإنسان لا صبر له على الجد المطلق والصرامة الدائمة.

قال النبي ﷺ لحنظلة حين ظن نفسه قد نافق لمداعبته زوجته وولده، وتغير حاله في بيته عن حاله مع رسول الله ﷺ « يا حنظلة، ساعة وساعة » (رواه مسلم).

وقال علي بن أبي طالب: روحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلوب إذا أكرهت عميت.

وقال كرم الله وجهه: إن القلوب تمل كما تمل الأبدان، فابتغوا لها طرائف الحكمة.

وقال أبو الدرداء: إنى لأستجم نفسى بالشىء من اللهو ليكون أقوى لها على الحق.

وقد أجاب الإمام الغزالي عمن قال: إن الغناء لهو ولعب بقوله: (هو كذلك، ولكن الدنيا كلها لهو ولعب... وجميع المداعبة مع النساء لهو، إلا الحرث التي هي سبب وجود الولد، كذلك المزح الذي لا فحش فيه حلال، نقل ذلك عن رسول الله ﷺ).

وأى لهو يزيد على لهو الحبشة والزواج في لعبهم، فقد ثبت بالنص بإباحته على أنى أقول: اللهو مروح القلب، ومخفف عنه أعباء الفكر، والقلوب إذا أكرهت عميت، وترويحها إعانة لها على الجد، فالمواظب على التفقه مثلا ينبغي أن يتعطل يوم الجمعة؛ لأن عطلة يوم تساعد على النشاط في سائر الأيام والمواظب على نوافل الصلوات في سائر الأوقات ينبغي أن يتعطل في بعض الأوقات، ولأجله كرهت الصلاة في بعض الأوقات فالعطلة معونة على العمل، واللهو معين على الجد، ولا يصبر على الجد المحض، والحق المر، إلا نفوس الأنبياء عليهم السلام.

فاللهو دواء القلب من داء الإعياء والملال، فينبغي أن يكون مباحا، ولكن لا ينبغي أن يستكثر منه، كما لا يستكثر من الدواء. فإذا اللهو على هذه النية

يصير قربة، هذا فى حق من لا يحرك السماع من قلبه صفة محمودة يطلب تحريكها، بل ليس له إلا اللذة والاستراحة المحضة، فينبغى أن يستحب له ذلك، ليتوصل به إلى المقصود الذى ذكرناه. نعم هذا يدل على نقصان عن ذروة الكمال، فإن الكامل هو الذى لا يحتاج أن يروح نفسه بغير الحق، ولكن حسنات الأبرار سيئات المقربين، ومن أحاط بعلم علاج القلوب، ووجوه التلطف بها، وسياقتها إلى الحق، علم قطعاً أن ترويحها بأمثال هذه الأمور دواء نافع لا غنى عنه^(١). .. انتهى كلام الغزالي، وهو كلام نفيس يعبر عن روح الإسلام الحق.

وقد نظر المحققون من العلماء فى تحريم الغناء، فلم يجدوا له علة مقنعة. ولعل أبرز من نظر فى ذلك نظرة علمية تحليلية، هو أبو حامد الغزالي رحمه الله فى (الإحياء).

فلنتابعه فى هذه النظرات العلمية الفاحصة، لنزداد اقتناعاً أنه لا وجه لتحريم الغناء شرعاً، بل ولا الآلات.

ذكر الغزالي أن الغناء لا يدل على تحريمه نص ولا قياس. ويعنى بالقياس: المعنى المعقول من النص، وبتعبير أقرب: المقصد الشرعى للتحريم. فإن الله لا يحرم طيباً.

بين الغزالي:

أن الغناء اجتمعت فيه معان ينبغى أن يبحث عن أفرادها ثم عن مجموعها، فإن فيه سماع صوت طيب، موزون، ومفهوم المعنى، محرك للقلب، فالوصف الأعم أنه صوت طيب. ثم الطيب ينقسم إلى الموزون وغيره، والموزون ينقسم إلى المفهوم كالأشعار، وإلى غير المفهوم كأصوات الجمادات وسائر الحيوانات.

(١) الإحياء: ج ٢/٢٨٧.

أما سماع الصوت الطيب من حيث إنه طيب فلا ينبغي أن يحرم، بل هو حلال بالنص والقياس . أما القياس فهو أنه يرجع إلى تلذذ حاسة السمع بإدراك ما هو مخصوص به، وللإنسان عقل وخمسة حواس ولكل حاسة إدراك، وفي مدركات تلك الحاسة ما يستلذ، فلذة النظر في المبصرات الجميلة كاخضرة والماء الجاري والوجه الحسن، وبالجملة سائر الألوان الجميلة، وهى فى مقابلة ما يكره من الألوان الكدرة القبيحة . وللشم الروائح الطيبة، وهى فى مقابلة الأنتان المستكرهة . وللذوق الطعون اللذيذة كالدسومة والحلاوة والحموضة، وهى فى مقابلة المرارة المستبشعة . وللمس لمذاة اللين والنعومة والملاسة، وهى فى مقابلة الخشونة والضراسة . وللعقل لذة العلم والمعرفة، وهى فى مقابلة الجهل والبلادة .

فكذلك الأصوات المدركة بالسمع تنقسم إلى مستلذة كصوت العنادل والمزامير، ومستكرهة كنهيق الحمير وغيرها . فما أظهر قياس هذه الحاسة ولذتها على سائر الحواس ولذاتها!

أما النص : فيدل على إباحة سماع الصوت الحسن امتنان الله تعالى على عباده إذ قال : ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ [سورة فاطر : ١] فقليل : هو الصوت الحسن، وقال ﷺ : «لله أشدُّ أذناً للرجل الحسن بالقرآن من صاحب القينة لقينته»^(١) وقال ﷺ فى مدح أبى موسى الأشعري : «لقد أعطى مزميراً من مزامير آل داود»^(٢) وقول الله تعالى : ﴿ إِن أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتِ الْحَمِيرِ ﴾ [لقمان : ١٩] يدل بمفهومه على مدح الصوت الحسن . ولو جاز أن يقال : إنما أبيع ذلك بشرط أن يكون فى القرآن للزومه أن يحرم سماع صوت العندليب لأنه ليس من القرآن . وإذا جاز سماع صوت غفل لا معنى له، فلم لا يجوز سماع صوت يفهم منه الحكمة والمعانى الصحيحة؟ وإن من الشعر لحكمة . فهذا نظر فى الصوت من حيث إنه طيب حسن .

(١) رواه ابن ماجه (١٣٧٠) وفى الزوائد : إسناده حسن والحاكم (٥٧١/١) وقال :

صحيح على شرطهما وقال الذهبي : بل هو منقطع .

(٢) متفق عليه عن أبى موسى، كما فى اللؤلؤ والمرجان (٤٥٦) .

الدرجة الثانية: النظر في الصوت الطيب الموزون؛ فإن الوزن وراء الحسن، فكم من صوت حسن خارج عن الوزن، وكم من صوت موزون غير مستطاب . والأصوات الموزونة باعتبار مخرجها ثلاثة: فإنها إما أن تخرج من جماد كصوت المزامير والأوتار، وضرب القضيب والطبل وغيره، وإما أن تخرج من حنجرة حيوان؛ وذلك الحيوان إما إنسان أو غيره كصوت العنادل والقمارى وذات السجع من الطيور؛ فهى من طيبها موزونة متناسبة المطالع والمقاطع، فلذلك يستلذ سماعها . والأصل فى الأصوات حناجر الحيوانات، وإنما وضعت المزامير على أصوات الحناجر، وهو تشبيه للصنعة بالخلقة . وما من شىء توصل أهل الصناعات بصناعتهم إلى تصويره إلا وله مثال فى الخلقة التى استأثر الله تعالى باختراعها؛ فمنه تعلم الصناع، وبه قصدوا الاقتداء، وشرح ذلك يطول . فسماع هذه الأصوات يستحيل أن يحرم لكونها طيبة أو موزونة فلا ذاهب إلى تحريم صوت العنديل وسائر الطيور! أ.هـ.

وأذكر أنى كنت مرة فى رحلة خلوية مع بعض الأخوة، ومعنا بعض المشايخ، فسمعنا بعض الطيور المغردة بأصواتها الجميلة المطربة فقال أحد المشايخ: انظروا، ما أجمل هذه الموسيقى الربانية!! وكان من المشددين فى أمر الغناء والآلات، فقلت له: فلماذا نحرمها إذا قلدها الإنسان، وهو يحاكي ما فطر الله عليه بعض خلقه؟ فلم يجد جوابا .

ثم ذكر الغزالي بعد ذلك: (الدرجة الثالثة) - بعد حسن الصوت والوزن - وهى درجة الفهم، أى أنه كلام موزون مفهوم، وهو الشعر وكونه مفهوما أو كونه شعرا لا يحرم بذلك، وإنما الشعر كلام ككل كلام، فحسنة حسن، وقبيحة قبيح .

وقد أورد الغزالي من الأحاديث ما يدل على أن الرسول ﷺ سمع الشعر، وأقره وشجعه، وأثنى على حسان وغيره، وهو أمر ثابت بيقين لا شك فيه بل سمع الرسول الكريم بعض ما تغنى به من الشعر، ولم ينكره، مثل:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

ثم ذكر الغزالي (الدرجة الرابعة) وتتضمن النظر فيه من حيث إنه محرك للقلب ومهيج لما هو الغالب عليه، مبينا أن لله سرا فى مناسبة النغمات الموزونة

للأرواح، حتى أنها لتؤثر فيها تأثيراً عجيباً فمن الأصوات ما يفرح، ومنها ما يحزن، ومنها ما ينوم، ومنها ما يضحك ويضطرب، ومنها ما يستخرج من الأعضاء حركات على وزنها باليد والرجل والرأس. ولا ينبغي أن يظن أن ذلك لفهم معاني الشعر، فإن هذا جارٍ في الأوتار، حتى قيل: من لم يحركه الربيع وأزهاره، والعود وأوتاره، فهو فاسد المزاج، محتاج إلى العلاج.

وكيف يكون ذلك لفهم المعنى، وتأثيره مشاهد في الصبى في مهده، فإنه يسكته الصوت الطيب عن بكائه، وتنصرف نفسه عما يبكيه إلى الإصغاء إليه؟ والجمل مع بلادة طبعه - يتأثر بالحداء تأثيراً يستخف معه الأحمال الثقيلة، ويستقصر - لقوة نشاطه في سماعه - المسافات الطويلة، وينبعث فيه من النشاط ما يسكره ويولفه. فتراها إذا طالت عليها البوادي، واعتراها الإعياء والكلال، تحت المحامل والأحمال، إذا سمعت منادى الحداء تمد أعناقها وتصغى إلى الحادى، ناصبة آذانها، وتسرع في مسيرها، حتى تنزعزع عليها أحمالها ومحاملها، وربما تلفت أنفسها من شدة السير، وثقل الحمل، وهي لا تشعر به لنشاطها.

فإذن تأثير السماع في القلب محسوس، ومن لم يحركه السماع، فهو ناقص مائل عن الاعتدال بعيد عن الروحانية، زائد في غلظ الطبع وكثافته على الجمال والطيور بل على جميع البهائم، فإن جميعها تتأثر بالنغمات الموزونة.. انتهى.

وصدق الإمام الغزالي، ففي عصرنا يسمعون بعض الأبقار الموسيقى عند حلبها فتدر اللبن بسهولة وغزارة. بل جربوا تأثير الموسيقى على بعض النباتات، فوجدوها تنمو بصورة أوضح، وبسرعة أكبر.

فهذه فطرة الله في المخلوقات والكائنات الحية، كما هي فطرة في الإنسان، الذى يتأثر بالصوت الجميل، والإسلام لم يجيء ليغير فطرة الله تعالى أو يصادرها، بل ليقرها ويسمو بها لتستخدم فيما يرقى به معنوياً ومادياً.

* * *